كتاب مصحفي - آيات في مكة و الحج

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة و السلام على النبي القائل: "أحب الأعمال إلى الله أدومها و إن قل"، الذي قالت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن عمله كان ديمة (أي يداوم عليه)، وبعد:
فمنذ أربعة أشهر و نصف الشهر بدأنا بتوفيق من الله في الكتابة حول معاني الآيات التي تتكلم عن الحج و العمرة و مكة و عشر ذي الحجة و الأضحية و الهدي و عيد الأضحى و أيام التشريق، في محاولة لبيان الآيات التي تذكر أو تشير إلى مكة و الحج في تدوينات قصيرة في شتى الجوانب التي تشرح هذه الآيات من تفسير و أسباب نزول و فقه و لغة و إعجاز علمي و أخلاق و تهذيب و حديث و سنة و تاملات و خواطر و غيرها. ومنذ أن بدأنا كانت أعيننا ترقب هذا اليوم الذي نفرغ فيه من جمع هذه الآيات و توضيح شيئ من معانيها لتضع أمام القارئ ما ورد في كتاب الله تعالى عن مكة و الحج، وها نحن اليوم نرى اكتمال هذه العمل بتوفيق الله و فضله و نسأل الله تعالى أن يرزقنا القبول و الأجر منه سبحانه.

إني أرى في هذا العمل نوذجا صغيرا على مبدأ عميق تعلمته وهو: "إنما هي جبال من الحصى!". إن هذا المبدأ هو منهج في إدارة الوقت و حسن استغلاله يبدأ بوضع غاية تريد الوصول إليها ثم تحدد قدرا من الوقت كل يوم لتعمل على تحقيق هذه الغاية، فكل يوم تبذل جهدا محدودا في وقت محدود، فإذا بهذه الجهود تتجمع بمرور الأيام حتى يكتمل البناء. أذكر هذا المنهج أو هذه الطريقة في مقدمة هذا الكتاب لأنها من الركائز الأساسية التي قامت عليها شبكة مصحفي، والتي أدعو إخواني جميعا على انتهاجها، فإذا قام كل واحد من أعضاء هذه الشبكة بقراءة معلومة حول آية من الآيات يوميا ثم دونها في هامش مصحفه، فإنه في نهاية العام سيحصل على ما يزيد عن الثلاثمائة معلومة قرأها و كتبها، ولن يكلفه ذلك الوقت الكثير، وقد يكون ذلك دافعا له إلى البحث و الاستزادة من علوم القرآن فيبدأ في هذه الرحلة المباركة التي لا تنتهي، فالقرآن لا تنقضي عجائبه و لا يخلق من كثرة الرد.

هذا هو الكتاب الأول من مجموعة "كتاب مصحفي"، يليه بإذن الله كتب أخرى نحاول فيها أن نلقي نظرة شاملة على تناول القرآن الكريم لموضوع معين من جوانب متعددة ذُكرت في القرآن مفرقةً في مواضع عدة عبر سوره، يضيء كل موضع منها جانبا من جوانب الحقيقة و الحكمة في هذا الموضوع.

هذا الكتاب يتناول الآيات التي تتكلم عن مكة و الحج، وهي تبدأ حسب ترتيب المصحف من الآية 124 من سورة البقرة و تنتهي بالآية 3 من سورة النصر، وطبيعة تنظيم هذا الكتاب مشابهة لتنظيم التدوينات في هامش المصحف على موقع الشبكة حيث نبدا باسم السورة ورقم الآية، يليها نص الآية، ثم التدوينات تحت هذه الآية متتابعة تحت أبواب مختلفة من تفسير وأسباب نزول وفقه و...وبهذه الطريقة يمكن للقرارئ أن يقرأ الكتاب من أي موضع شاء: أوله أو وسطه أو آخره، أو يقرأ تدوينة من هنا و تدوينة من هناك.

أنصح إخواني أن يقرؤوا هذا الكتاب أو بعض تدويناته خاصة قبل الذهاب إلى الحج أو العمرة كي ينمو عندهم تصور عن ما قاله الله تعالى عن المكان الذي يتهيؤن للذهاب إليه، و ما قاله عن العمل العظيم الذي يتهيؤون للقيام به، وإن كان لا يغني عن تعلم فقه الحج و العمرة من مصادرها، نسأل الله أن يتقبل من الجميع، و نسأله تعالى أن يصل هذا الكتاب إلى من ينتفع بها.

علي ماهر قوره
الأسكندرية - 5 ربيع الثاني 1434

(السورة: البقرة / الآية: 124)

{وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين}

تفسير

الابتلاء الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء، لأنه عالم بهم، ولكن ليعلم العباد أحوالهم فيجازيهم عليها و لا يكون لهم حجة.

واختلفوا في الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام:

1-فقال عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون سماهن شرائع الإسلام، ولم يبتل بها أحد فأقامها كلها إلا إبراهيم فكتب له البراءة، فقال تعالى: "إبراهيم الذي وفى" عشر في براءة: "التائبون العابدون..."، وعشر في الأحزاب: "إن المسلمين و المسلمات..."، وعشر في سورة المؤمنين في قوله:"قد أفلح المؤمنون..."، وقوله: "إلا المصلين..." في سأل سائل.

2-وقال طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله بعشرة أشياء وهي: "الفطرة": خمس في الرأس: قص الشارب، والمضمضة والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وخمس في الجسد: تقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء بالماء .

3-وقال الربيع وقتادة: مناسك الحج

4-وقال الحسن: ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكواكب والقمر والشمس، فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لا يزول، وبالنار فصبر عليها، وبالهجرة وبذبح ابنه وبالختان فصبر عليها

5-قال سعيد بن جبير: هو قول إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان البيت: "ربنا تقبل منا..."فرفعاها بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

6-قال يمان بن رباب: هن محاجة قومه قال الله تعالى في سورة الأنعام: "وحاجه قومه..." إلى قوله تعالى: "وتلك حجتنا..." وقيل هي قوله في الشعراء:" الذي خلقني فهو يهدين...".

تأملات

هكذا جرى عدل الله في خلقه أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، فلم يضمن لخليله إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في واحد من ذريته إن كان ظالما (لا ينال عهدي الظالمين) أي لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ولدك.

الحديث و السنة

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "اختتن إبراهيم عليه السلام، وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم"

اللغة

إبراهيم: علم أعجمي و يقال معناه في السريانية "آب راهام" أو الأب الرحيم، و لأنه اسم أعجمي فيجر بالفتحة و ليس الكسرة، وهو إبراهيم بن تارخ بن ناخور وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز وقيل بابل وقيل: كوفي وقيل حران، وكان أبوه نقله إلى أرض بابل أرض نمرود بن كنعان.

(فأتمهن) قال قتادة: أداهن، قال الضحاك: قام بهن وقال: عمل بهن.

الإمامة: القدوة، و الإمام من يقتدى به و يقال يؤتم به ومنها قوله تعالى :"إن إبراهيم كان أمة..." أي يؤتم به

(السورة: البقرة / الآية: 125)

{وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود}

تفسير

"البيت" يعني الكعبة
"مثابة للناس" مرجعا لهم، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يأتون إليه من كل جانب ويحجون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معاذا وملجأ وقال قتادة وعكرمة: مجمعا
"و أمنا" أي مأمنا، قال الله تعالى: "أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم"

مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد داخل قبة نحاسية، وذلك الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء البيت، وقيل: كان أثر أصابع رجليه بينا فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، قال قتادة ومقاتل والسدي: أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله. و من سنة الطواف أن يصلي الحاج و المعتمر ركعتين بعد الطواف جاعلا المقام بينه و بين الكعبة، فإن لم يستطع لشدة الزحام، فالمسجد كله مقام إبراهيم.

قوله تعالى: "أن طهرا بيتي" أي ابنياه على الطهارة والتوحيد، وقال سعيد بن جبير وعطاء: طهراه من الأوثان والريب وقول الزور، وقيل: بخراه وخلقاه. أي أن الطهارة هنا طهارة مادية و معنوية، فالبيت يطهر من النجاسات و القاذورات و ينظف و يطيب، و يطهر أيضا من الأوثان و البدع و ما يخالف التوحيد، و يطهر أيضا من القول الفاحش و قول الزور.

خواطر

"الطائفين" الدائرين حول البيت، و "العاكفين" المقيمين المجاورين، والركع السجود هم المصلين. الكلبي ومقاتل: الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة. وهنا ينبغي على أهل مكة أن يعلموا أن البيت بيت الله وقد أمر إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام بتطهيره لمن يأتيه من الغرباء و لمن يقيم حوله، فلا يظن أهل مكة في أي زمان أن هذا البيت ملك لهم يدخلون فيه من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون، إنما هو بيت الله إن قاموا بخدمته و خدمة حجاجه و عماره فلهم الأجر و الثواب عند الله و لهم الثناء من

الناس.

الحديث و السنة

روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله الذي أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ، ورفع يديه فقال : { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع - حتى بلغ - يشكرون } . وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (فذلك سعي الناس بينهما) . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمعت ، فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال : بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أم إسماعيل ، لو كانت تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا) . قال : فشربت وأرضعت ولدها ، قال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن ها هنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس) . فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ، فأخبرته أنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقي بأهلك ، فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، قالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، قالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك في اللحم والماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه) . قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلم جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ، قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمر ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني بيتا ها هنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم } . قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : { ربنا تقبل منا إنك السميع العليم } .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه" فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إلا الإذخر"

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث -قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله تعالى: "و اتخذو من مقام إبراهيم مصلى" وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، قال وبلغني معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت لهن: إن انتهيتن، وليبدلنه الله خيرا منكن، فأنزل الله تعالى: "عسى ربه إن طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن"

(السورة: البقرة / الآية: 126)

{وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير}

خواطر

هذه دعوة إبراهيم عليه السلام لمكة نراها اليوم تتحقق في معجزة لا ينبغي أن نغفل عنها: فمكة صحراء صخرية شديدة الحر و مع ذلك نجد فيها اليوم الأسواق العملاقة التي يجبى إليها ثمرات كل شيئ، فنجد فيها جميع أنواع ثمار العام في جميع المواسم! فظهور النفط في جزيرة العرب ثم اختراع الطائرات و السفن العملاقة في العالم وازدهار حركة الاستيراد و التصدير أدى -بفضل الله- إلى أن تصل ثمار العالم إلى هذه البقعة، فعلى المسلم أن يعلم أن أمر الله نافذ لا محالة حتى و إن عجز عقله عن استيعاب الأسباب أو حتى تخيلها، فإن الله سبحانه هو خالق الأسباب و إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون"

أراد إبراهيم عليه السلام أن يكون الرزق والثمرات لمن آمن فقط و لكن الله سبحانه رحيم بعباده و هو الرزاق، فلم يحرم الكافر من أن يصله رزقه، فكما قال النبي صلى الله عليه و سلم: "ما من أحد أصبر على الأذى من الله، يجعلون له الولد و هو يرزقهم و يعافيهم". و عبر القرآن عن متاع الكافر بأنه قليل "فأمتعه قليلا" لأن الكافر مهما أخذ في الدنيا فإن الدنيا لا تساوي شيئا في الآخرة من حيث "كمية" النعمة أو من حيث "زمن" الاستمتاع بها، فكلاهما قليل.

(السورة: البقرة / الآية: 127)

{وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}

تفسير

تبين الآية أن قواعد البيت -أي أسسه- قد خلقاها الله من قبل و جعلها في مكانها ثم دل الله تعالى إبراهيم عليه السلام على هذا المكان ليبني عليها البيت. قال ابن عباس: بعث الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافق مكة

ووقفت على موضع البيت فنودي منها إبراهيم أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص.

تأملات

"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" ينبغي أن تكون شعارا للمسلم في كل عمل يعمله، فغاية ما يقصده من العمل هو أن يتقبله الله، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: "لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم واحد،لم يكن غائب أحب إلي من الموت، أتدري ممن يتقبل الله، إنما يتقبل الله من المتقين". فإن المسلم يقوم بعمله مستحضرا أن الله تعالى سميع لما يقوله عليم بما يعمله و ما في قلبه و نيته.

(السورة: البقرة / الآية: 128)

{ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم}

خواطر

يدعو إبراهيم عليه السلام ربه بأن يعلمه النسك و كيفية الحج، كي يعبد الله تعالى كما يحب و يرضى، و يقول النبي صلى الله عليه و سلم خذوا عني مناسككم، و أنا أعجب لرجل دفع الألوف ليحج، وقد انطلق إلى الحج و لم يقرأ كتابا و لا كتيبا، و لم يحضر درسا و لا ندوة، و لم يعلم شيئا عن النسك، و هو يقول أفعلم مثل ما يفعل الناس، فإذا بالناس مخلتفين منقسمين، فلا يدري أيتبع هذا أم يتبع هذا! فواجب على كل من أراد الحج أن يتعلم المناسك حتى إذا حج كانت حجته على هدي النبي صلى الله عليه و سلم، فيرجو من الله القبول.

اللغة

مناسكنا: شرائع ديننا / مواضع حجنا / مذابحنا والنسك الذبيحة / متعبداتنا، وأصل النسك العبادة، والناسك العابد

(السورة: البقرة / الآية: 129)

{ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم}

تأملات

دعا إبراهيم عليه السلام للأمة بالعلم و الزكاة في هذه الآية فكانت الإجابة من الله في الآية 164 من سورة آل عمران: ""لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" بالزكاة أولا ثم العلم. والزكاة هي الطهارة و الخيرية و الخلق الحسن فكما قال النبي صلى الله عليه وسلم:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، و خيرية الأمة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن

المنكر و تؤمنون بالله".

الحديث و السنة

عن العرباض بن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني وقد خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام"

(السورة: البقرة / الآية: 130)

{ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين}

أسباب النزول

وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله عز وجل قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله عز وجل "ومن يرغب عن مله إبراهيم..." أي يترك دينه وشريعته يقال رغب في الشيء إذا أراده، ورغب عنه إذا تركه. و ملة إبراهيم هي الحنيفية و التوحيد و إفراد الله بالعبادة و الامتثال لأمر الله و نبذ الشرك، و هي من أهم مقاصد الحج و أولى ما ينبغي أن يستحضره الحاج في حجه.

(السورة: البقرة / الآية: 144)

{قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون}

كان النبي صلى الله عليه و سلم يصلي في مكة جاعلا البيت بينه و بين بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة لم يتمكن من الجمع بينهما لأن مكة أصبحت خلفه إذا استقبل بيت المقدس، و كان النبي صلى الله عليه و سلم يحب أن يصلي إلى الكعبة فهي قبلة أبيه إبراهيم و لكنه لم يسأل الله ذلك صراحة تأدبا مع الله تعالى، فأنزل الله تعالى هذه الآية التي فيها رفق الله تعالى بنبيه صلى الله عليه و سلم قائلا: "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها".

تأملات

الكعبة المشرفة هي قبلة المسلمين في كل بقاع الأرض في صلاتهم، واستقبالها شرط من شروط صحة الصلاة، فحينما يتوجه المسلم إلى تلك البقاع المباركة يشعر بالفضل العظيم أن اقترب من هذه القبلة التي كان يتوجه إليها في بلده الذي كان فيه.

إن أمر الله المسلمين بالصلاة إلى بيت المقدس ثم إلى البيت الحرام فيه من المعاني و الإشارات ما لا يخفى على أحد:
1-إن المسجد الأقصى و القدس من مقدسات المسلمين التي لا يفرطون فيهاكما لا يفرطون في الكعبة و مكة
2-إن الإسلام جاء مصدقا للرسالات السابقة و مهيمنا عليها
3-إن القيادة تتحول إلى أمة الإسلام بعد أن حرف من سبقهم و بدلوا
4-إن الله تعالى يخلق ما يشاء و يختار و له الحكم و الأمر و علينا السمع و الطاعة

(السورة: البقرة / الآية: 158)

{ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم}

أسباب النزول

سبب نـزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان أساف ونائلة، وكان أساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كان المسلمون يتحرجون عن السعي بين الصفا والمروة لأجل الصنمين فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله.

عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله تعالى (إن الصفا و المروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) فما أرى على أحد شيئا ألا يطوف بهما، قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول كانت "فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما" إنما أنـزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة. فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنـزل الله تعالى (إن الصفا و المروة من شعائر الله...).

فقه

و السعي و الطواف في الحج إنما شرعا لذكر الله، فيشرع فيهما الذكر عامة من تسبيح و تحميد و تهليل و استغفار و دعاء و تلاوة قرآن و غيرها و لا يشترط في السعي الوضوء و لكنه أولى إن تيسر ذلك، ومن كان متمتعا فعليه سعي في العمرة و سعي في الحج أما من كان مفردا أو قارنا فعليه سعي واحد.

السعي بين الصفا و المروة سبعة أشواط: فمن الصفا إلى المروة شوط، و من المروة إلى الصفا شوط آخر، و ليس كما يظن البعض أن الذهاب ثم العودة تعد شوطا واحدا.

يبدأ السعي بين الصفا و المروة من الصفا لأن الله بدأ بها و لأن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بها فلما دنا منها قرأ: "إن الصفا و المروة من شعائر الله..."، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصف ، فرقى عليه حتى رأى البيت (ربما لا يتمكن الناس اليوم من رؤية البيت وهم على الصفا نتيجة البناء و الأعمدة فعليهم استقباله فقط)، فاستقبل القبلة، فوحد الله و كبره و قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده و نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده - ثم دعا بين ذلك وفعل مثل هذا "ثلاث مرات"، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا نصبت قدماه في بطن الوادي (المسعى اليوم مغطى بالبورسلين و لا يرى الحاج بطن الوادي ولكنه يرى علامتين من مصباحين أخضرين في السقف ما بينهما كان بطن الوادي فيسعى بينهما)، سعى حتى إذا صعد مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، فكان آخر طوافه على المروة

تأملات

السعي بين الصفاوالمروة يخلد ذكرى هاجر عليها السلام و هي تبحث عن الماء بعد أن نفد ما عندها من ماء فانطلقت و تركت صغيرها و هو يتلوى من العطش ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات.

ولعل تخليد هذه الذكرى لما كانت تحمله هذه المرأة المؤمنة من يقين بأن الله لن يضيعها و مع ذلك أخذت بالأسباب فهي تسعى بين جبلين تبحث عن الماء، فكانت الجائزة من الله بئر زمزم و تخليد هذه الذكرى إلى ما شاء الله.

الحديث و السنة

عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني بنت أبي تجراة -اسمها حبيبة إحدى نساء بني عبد الدار -قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين ننظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدة السعي حتى لأقول إني لأرى ركبتيه، وسمعته يقول "اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي"

اللغة

الصفا جمع صفاة وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصفا، مثل: حصاة وحصى ونواة ونوى، والمروة: الحجر الرخو، وجمعها مروات، وجمع الكثير مرو، مثل تمرة وتمرات وتمر. وإنما عنى بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وشعائر الله أعلام دينه، أصلها من الإشعار وهو الإعلام واحدتها شعيرة وكل ما كان معلما لقربان يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة فالمطاف والموقف والنحر كلها شعائر الله ومثلها المشاعر، والمراد بالشعائر هاهنا: المناسك التي جعلها الله أعلاما لطاعته، فالصفا والمروة منها حتى يطاف بهما جميعا.

الحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، وفي الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة.

"فلاجناح عليه": أي لا إثم عليه، وأصله من جنح أي مال عن القصد

"أن يطوف بهما" أي يدور بهما، وأصله يتطوف أدغمت التاء في الطاء.

(السورة: البقرة / الآية: 189)

{ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون}

أسباب النزول

قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلّةِ) نـزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ نورا ثم يعود دقيقا كما بدأ ولا يكون على حالة واحدة؟ فأنـزل الله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ...) وهي جمع هلال مثل رداء وأردية سمي هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته من قولهم استهل الصبي إذا صرخ حين يولد وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) جمع ميقات أي فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعِدد النساء وغيرها.

(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا)
كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته ليدخل منه ويخرج أو يتخذ سلما فيصعد منه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك برا إلا أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة [وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة وبنو مضر بن معاوية سموا حمسا لتشددهم في دينهم والحماسة الشدة والصلابة] فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتا لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن التابوت على أثره من الباب وهو محرم فأنكروا عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم دخلت من الباب وأنت محرم؟ قال رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني أحمس" فقال الرجل إن كنت أحمسيا فإني أحمسي رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنـزل الله تعالى هذه الآية وقال الزهري: كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقول في حجرته فيأمر بحاجته حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لم فعلت ذلك؟ قال لأني رأيتك دخلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني أحمس" فقال الأنصاري وأنا أحمس يقول وأنا على دينك فأنـزل الله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها).

فقه

يستحب الدعاء عند رؤية الهلال بما رواه الترمذي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم كان إذا رأى الهلال قال: "اللهم أهله علينا باليمن و الإيمان و السلامة و الإسلم، ربي و ربك الله"

روى النسائي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، وانسكوا لها، فإن غم عليكم فأكملوا ثلاثين، فإن شهد شاهدان فصوموا و أفطروا"

في حديث للدكتور محمد أحمد سليمان رئيس قسم بحوث الشمس والفضاء بالمعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية قا ل:
تبدأ رؤية هلال رمضا ن وقت غروب شمس يوم التاسع والعشرين من شعبان حيث يتوجه النظر إلى جهة نقطة غروب الشمس ، وهي النقطة الّتي يولد فيها الهلال ، ويتم تحديد منطقة الرؤية من خلال مربع وهمي يكون مر كزه نقطة غروب الشمس ، ومساحته خمس درجات شمالا و خمس درجات يمينا ، وثماني درجات لأ على ، وثماني درجات لأسفل ، و لا تزيد فترة الرؤية على نصف سا عة بعد الغروب ، فإذا لم يظهر الهلال خلال نصف ساعة بعد الغروب يتم ا ستكمال الشهر ثلاثين يوما.

ويظهر الهلال على شكل خيط أبيض رفيع قرناه لأ على ، ويشترط لمكان رؤية الهلال أ ن يكو ن مرتفعا عن سطح البحر وبعيدا عن الأضواء حتى لا تؤثّر على رؤيته ، و كذلك لابد أ ن يكو ن المكان خاليا من المرتفعات كالأبراج والأشجار والمآذن العالية ، ويمكن رؤية الهلال بالعين المجردة إذا كانت الظّروف الجوية مناسبة مع عدم وجود حوائل من سحب أ و دخان أ و ضباب أو أمطار تحول دو ن رؤية الهلال.

وتنقسم حالات رؤية الهلال إلى أربع حالات قاطعة وحالة حر جة:

الحالة الأ ولى : هي غرو ب القمر يوم التاسع والعشرين قبل غروب الشمس ؛ وفي هذه الحالة لا يمكن رؤية أ ي جزء من القمر بعد الغروب ، وذلك يعني استك مال الشهر ثلاثين يوما.

والحالة الثّانية : هي غرو ب القمر بعد غروب الشمس ، و هنا يظهر الهلال وتكون الرؤية ثابتة.

والحالة الثّالثة : هي ظهور الهلال بعد غروب شمس التاسع والعشرين بفترة ؛ كأن يولد بعد الغروب بساعات أو في صباح اليوم التالي ، و هنا يحكم باستكمال الشهر.

الحالة الرابعة : هي غرو ب الشمس وحدو ث كسوف ؛ أي أن يقع القمر بين الأرض والشمس ، وفيها لا يمكن رؤية الهلال من سطح الأرض ويستكمل الشهر ، وهي حالة نادرة.

والحالة الخامسة : وهي حالة حرجة للغاية : وهي اختلا ف مطالع الهلال في الدول العربية والإسلامية فقد يغرب قبل الشمس في مكان ، وبعدها في مكان آخر ، وفي هذه الحالة يترك الأمر لرجال الدين لتحديد ما إذا كانت ستوحد الرؤية ويصام إذا ظهر الهلا ل في إحدى الدول العربية ، أو سينتظر حتى ظهور الهلال في الدولة.

ورؤية الهلال كانت قديما بالعين المجردة ، وفي أحايين كثيرة كانت تحدث أخطاء نتيجة وجود الضباب ، أ و عوائق مناخية تعوق رؤية الهلال بالعين المجردة ، وكا ن يحكم باستكمال الشهر ثلاثين يوما ، أما الآن فإننا نستطيع وبسهولة تامة رؤية الهلال من خلال التليسكوب بالإضافة إلى أنّ الحسابات الفلكية أصبحت دقيقة جدا وتستخدم فيها برامج كمبيوتر تستطيع تحديد مواعيد غروب الهلال لمئات من السنين القادمة ، و هذه المواعيد محسوبة بدقّة متناهية وتتفق مع الرؤية بنسبة ١٠٠ % لكن الرؤية أمر شرعي لابد منه . من مقال بجريدة الأخبار يوم ٢٩ من شعبان سنة ١٤٢٣ هـ.

تثبت رؤية الهلال بشهادة عدلين من المسلمين في كافة الشهور عدا رمضان فيكفي لدخوله شهادة عدل واحد فقط، واختلف الفقهاء في إثبات الهلال بالحسابات الفلكية فمنهم من أيد ذلك و منهم من قال بعدم إثبات الأهلة بالحساب، و الراجح و الله أعلم أن الرؤية بالعين أو بالمكبرات أمر شرعي لابد من و الحساب يعتد به لتأكيد شهادة الشهود أو ردها حتى و إن كانوا عدول لأنهم قد يكونوا توهموا رؤيته. و إنّ للدول الآ ن مراصد و هيئات لحساب مواقيت الشهور قد بنيت على علوم فلكية صارت قطعية في كثير من نتائجها لذلك ينبغي ألاّ يهمل ذلك العلم ، خاصة وأنّ الدول لا تترك لآحاد الناس تحديد أوائل الشهور حتى يحدث الخلاف ، ولذلك يصلح الآن أن يكون الحساب الفلكي القطعي أمارة على إصابة الشهود أ و خطئهم و ليس بديلا عنهم ، والله أعلم.

والمواقيت الّتي تحتا ج إلى الهلال:
ميقات صلاة العيد: يوم الأول من شوال و العاشر من ذي الحجة
والزكاة: أن يحول الحول (عام هجري كامل) على المال
وصدقة الفطر: ليلة العيد إلى الصلاة أو قبل ذلك بيوم أو يومين
وصيام رمضان: يوم الأول من رمضان حتى ما قبل الأول من شوال
والفطر منه: الأول من شوال
وصيام الأيام البيض: 13و 14 و15 من كل شهر
وصيام عاشوراء: العاشر من المحرم
وكراهية الصوم بعد نصف شعبان (لمن قال بذلك): من 16 شعبان حتى ما قبل 1 رمضان
وصيام ست من شوال: 6 أيام من 1 شوال حتى ما قبل 1 ذي القعدة
ومعرفة سن شاة الزكاة وأسنان الإبل والبقر فيها
والاعتكاف: العشر الأواخر من رمضان
و في النذر: إن نذر إنسان شيئا مقيدا بوقت معين
والحج: أشهر الحج هي شوال و ذو القعدة و ذو الحجة، و أيام الحج هي من 8 ذي الحجة إلى 13 ذي الحجة.
والوقوف: 9 ذو الحجة

والأضحية: بعد صلاة العيد من يوم 10 ذو الحجة
والعقيقة: بعد أسبوع من ولادة المولود
والهدي: 10 ذو الحجة
والآجال والسلم والمساقاة والإجارة: في العقود
والبلوغ: من بلغ سنا معينة دون ظهور علامات البلوغ لتأخرها فإنه قد بلغ سن التكليف
واللّقطة: لمعرفة مدة تعريفها
وأجل العنة والإيلاء وكفّارة الوقاع والظّهار بالصوم: بين الزوجين
وكفارة القتل بالصوم: شهرين متتابعين
والعدة في المتوفّى عنها وفي الآيسة والا ستبراء والرضاع ولحوق النسب وكسوة الزو جة
والديات
و غير ذلك، فكا ن من المهم صرف بعض العناية إلى ذلك ومعرفة دخول الشهر شرعا

يقول لبيب بي ضون في كتابه "الله والإ عجاز العلمي في القرآن " : إنّ القمر أثناء د ورانه حول الأ رض يمر بوضعية ينطبق فيها ظاهر يا على الشمس ، وهذا يوافق المحاق (حينما يختفي القمر تماما) ، فإذا علا قليلا عنها بالنسبة للناظر من الأ رض قلنا : إنه ولد ؛ لأنّ الجزء السفلي من وجهه المضيء يبدأ في الظّهور . وفي هذه الحالة نحصل على الهلال بشكل حرف (ن) . لكن هذا لا يحدث إلاّ نادرا ، وذلك عندما تقع الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة ، وهي حالة كسوف الشمس. أما في الحالة العامة فيكون القمر منزاحا إلى أ حد جانبي الشمس . فإذا صار القمر أثناء دورانه على خطّ أفقي واحد مع الشمس يكون في المحاق.
وبمجرد انزياحه عن هذه الوضعية وارتفاعه عن أفق الشمس ، يبدأ طرفه المضيء بالظّهور ونقول : إنّ القمر قد ولد. ويكون شكل الهلال عندها مثل الحرف (ر). بيد أنّ العين البشرية لا تستطيع رؤية القمر بعد ولادته إذا كان عمره أقلّ من ثماني ساعات ، وذلك لشدة قربه من الشمس وتأثير ضوئها على وضوحه . وبما أنّ الولادة للقمر متعلّقة بر ؤيته ، فإذا التمسنا القمر عند غروب الشمس و كان عمره أ كثر من ثماني ساعات واستطعنا ؤيته نقول إنه ولد شرعا

روى الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم قال : { الصوم يوم تصومون ، والفطر يوم تفطرون ، والأضحى يوم تضحون } و هذا يدلّ على أنهم يصومون معا و لا ينفرد البعض بشيء دو ن الباقين.

روى مسلم عن كريب : { أنّ أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها ، وا ستهلّ علي رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر ، فسألني عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم ذكر الهلال فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة ، فقال : أنت رأيته ؟ فقلت : نعم ، ورآه النا س و صاموا وصام معاوية ، فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت ، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أ و نراه ، فقلت : أولا تكتفي برؤية معاوية وصيامه ؟ فقال : لا ؛ هكذا أمرنا رسو ل الله صلّى الله عليه و سلّم }. وفيه جوا ز الاجتهاد في إثبات رؤية الهلال بقبول أو رد كلام الشاهد.

إعجاز علمي

في الآية إشارة واضحة و ليست مستترة إلى أن مرور الزمان مرتبط بالحركة أو بالتغير، أي أننا لو فرضنا أن كل ما في هذا الكون ساكن ثابت لا يتغير، فلا كواكب تسبح في الفضاء و لا ماء يجري و لا كائن ينمو أو يتحرك، و لا تهب نسمة و لا تتحرك ذرة و لا يتغير شيء من حال إلى حال، فكيف نقدر الوقت؟ و ما فائد تقدير الوقت إذا و كل شيء لا يتغير؟ فالإنسان قام بتحديد الأيام عن طريق شروق الشمس و غروبها ثم نقسم اليوم إلى فجر و ظهر و عصر و مغرب و عشاء حسب الحركة النسبية بين الأرض و الشمس ثم نقسم السنة إلى شهور تبعا لمنازل القمر، فبظهرو الهلال يبدأ الشهر.

وحينما احتاج علماء الفيزياء إلى تحديد دقيق لتعريف الثانية كانت: الزمن اللازم لتقوم ذرة السيزيوم 133 بعمل عدد من الذبذبات الذرية الدورية يساوي 79,192,631,177 ذبذبة، أي أنهم قاموا بربط تعريف الثانية (وحدة لقياس الوقت) بعدد من الذبذبات (ظاهرة حركية).

ولذلك فليس غريبا أن نقول أن الله سبحانه "خلق" الليل و النهار و "خلق" الزمن وأنه سبحانه لا يتأثر بهذا الزمن كما تتأثر المخلوقات فهو الأول و الآخر سبحانه و يعلم ما كان و ما يكون و ما لم يكن لو كان كيف يكون.

الحديث و السنة

في الصحيحين عن أبي بكرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى الله عليه و سلّم . قا ل : { شهران لا ينقصان شهرا عيد : رمضان و ذو ا لحجة } لا ينقص أ جرهما والثّواب المرتب وإن نقص عددهما بأن كان الشهر 29 يوما برؤية الهلال.

(السورة: البقرة / الآية: 191)

{واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين}

تفسير

قوله تعالى: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) قيل نسخت الآية الأولى بهذه الآية، وأصل الثقافة الحذق والبصر بالأمور، ومعناه واقتلوهم حيث بصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم (وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ) وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) يعني شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) وكان هذا في ابتداء الإسلام كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخا بقَوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ) هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حيان قوله (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) ثم نسختها آية السيف في براءة فهي ناسخة منسوخة. وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم.

قوله تعالى: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) قيل نسخت الآية الأولى بهذه الآية، وأصل الثقافة الحذق والبصر بالأمور، ومعناه واقتلوهم حيث بصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم (وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ) وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة، فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) يعني شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) وكان هذا في ابتداء الإسلام كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخا بقَوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ) هذا قول قتادة، وقال مقاتل بن حيان قوله (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) ثم نسختها آية السيف في براءة فهي ناسخة منسوخة. وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم.

فقه

إن البلد الحرام و المسجد الحرام له حرمة خاصة منها: لا ينفر صيده ولا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ولا يسفك فيه دم ولا تلتقط لقطته إلا لمعرف فيجب على المسلمين أن يحترموه ويعظموه ، وأن يحذروا ما حرم الله فيه من إيذاء المسلمين والظلم لهم والتعدي

عليهم حجاجا أو عمارا أو غيرهم ، كما يجب تطهير هذا البيت للمقيمين فيه والمتعبدين فيه

(السورة: البقرة / الآية: 194)

{الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين}

فالأشهر الحرم هي ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ورجب، و سميت بالأشهر الحرم لأنها يحرم فيها الابتداء بالقتال و لحرمتها عند الله، كما في الصحيحين من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب، شهر مُضر، الذي بين جمادى وشعبان" .
وقوله: ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان، لأن ربيعة كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً، وكانت مضر تحرم رجباً نفسه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الذي بين جمادى وشعبان" تأكيداً وبياناً لصحة ما سارت عليه مُضر.

صرح بعض أهل العلم بمضاعفة الثواب والعقاب في الأشهر الحرم استناداً لقوله تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) [التوبة:36] .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) أي في هذه الأشهر المحرمة، لأنها آكد، وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الحج:25].

وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قَتل في الحرم أو قتل ذا محرم، ثم نقل عن قتادة قوله: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم في سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم في أمره ما يشاء.

(السورة: البقرة / الآية: 196)

{وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب}

تفسير

اختلف المفسرون في قوله عز وجل (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) في معنى الإتمام:

1-فقال بعضهم: هو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما، وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعي ومجاهد، وأركان الحج خمسة .. الإحرام والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، وحلق الرأس أو التقصير. وللحج تحللان،

وأسباب التحلل ثلاثة: رمي جمرة العقبة يوم النحر وطواف الزيارة والحلق، فإذا وجد شيئان من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلل الأول، وبالثلاث حصل التحلل الثاني، وبعد التحلل الأول تستبيح جميع محظورات الإحرام إلا النساء، وبعد الثاني يستبيح الكل، وأركان العمرة أربعة: الإحرام، والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والحلق

2-وقال سعيد بن جبير وطاووس: تمام الحج والعمرة أن تحرم بهما مفردين مستأنفين من دويرة أهلك.

3-وسئل علي بن أبي طالب عن قوله تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) قال أن تحرم بهما من دويرة أهلك ومثله عن ابن مسعود.

4-وقال قتادة: تمام العمرة أن تعمل في غير أشهر الحج، فإن كانت في أشهر الحج ثم أقام حتى حج فهي متعة، وعليه فيها الهدي إن وجده، أو الصيام إن لم يجد الهدي، وتمام الحج أن يؤتى بمناسكه كلها حتى لا يلزم عامله دم بسبب قران ولا متعة.

5-وقال الضحاك: إتمامها أن تكون النفقة حلالا وينتهي عما نهى الله عنه.

6-وقال سفيان الثوري: إتمامها أن تخرج من أهلك لهما، ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة.

7-قال عمر بن الخطاب: الوفد كثير والحاج قليل

8-و منهم من تأول المعنى أن أتموهما إذا دخلتم فيهما، أما ابتداء الشروع فيها فتطوع

9- منهم من قال أن المعنى: ابتدءوهما، فإذا دخلتم فيهما فأتموهما فهو أمر بالإبتداء والإتمام أي أقيموهما و هو الأصح و الله أعلم.

قوله تعالى: (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ) اختلف العلماء في الإحصار الذي يبيح للمحرم التحلل من إحرامه فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمعنى في إحرامه من عدو أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلة، يبيح له التحلل، وبه قال ابن مسعود وهو قول إبراهيم النخعي والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير، وإليه ذهب سفيان الثوري وأهل العراق وقالوا: لأن الإحصار في كلام العرب هو حبس العلة أو المرض، وقال الكسائي وأبو عبيدة ما كان من مرض أو ذهاب نفقة يقال: منه أحصر فهو محصر وما كان من حبس عدو أو سجن يقال: منه حصر فهو محصور، وإنما جعل هاهنا حبس العدو إحصارا قياسا على المرض إذ كان في معناه، واحتجوا بما روي عن عكرمة عن الحجاج ابن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل"

روي أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "حجي واشترطي وقولي اللهم محلي حيث حبستني"، ومنها أن الحاج أو المعتمر إن خشي ألا يتم حجته فله أن يشترط و هو ينوي الإحرام.

قوله تعالى (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ) فيه أقوال:
1-ذكرها على وجه التأكيد وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان.
2-وقيل: فيه تقديم وتأخير يعني فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم فهي عشرة كاملة
3-وقيل: كاملة في الثواب والأجر
4-وقيل: كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم بدل الهدي
5-وقيل: كاملة بشروطها وحدودها
6-وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أي فأكملوها ولا تنقصوها

أسباب النزول

قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ) معناه لا تحلقوا رءوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو لأذى في الرأس من هوام أو صداع (فَفِدْيَة) فيه إضمار، أي: فحلق فعليه فدية نـزلت في كعب بن عجرة.

عن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يسقط على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك؟ قال نعم فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق وهو بالحديبية ولم يبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة، فأنـزل الله الفدية فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعم فرقا بين ستة مساكين أويهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام

فقه

اتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلا واختلفوا في وجوب العمرة فذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها وهو قول عمر وعلي وابن عمر وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والله إن العمرة لقرينة الحج في كتاب الله، قال الله تعالى: "وأتموا الحج والعمرة لله" وبه قال عطاء وطاووس وقتادة وسعيد بن جبير، وإليه ذهب الثوري والشافعي في أصح قوليه، وذهب قوم إلى أنها سنة وهو قول جابر وبه قال(الشافعي) وإليه ذهب مالك وأهل العراق وتأولوا قوله تعالى (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) على معنى أتموهما إذا دخلتم فيهما، أما ابتداء الشروع فيها فتطوع، واحتج من لم يوجبهما بما روي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن العمرة أواجبة هي؟ فقال: (لا وأن تعتمروا خير لكم) والقول الأول أصح ومعنى قوله (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) أي ابتدءوهما، فإذا دخلتم فيهما فأتموهما فهو أمر بالإبتداء والإتمام أي أقيموهما كقوله تعالى: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (187-البقرة) أي ابتدءوه وأتموه.

المحصر يتحلل بذبح الهدي وحلق الرأس، والهدي شاة وهو المراد من قوله تعالى (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح الهدي عام الحديبية بها، وذهب قوم إلى أنَ المحصر يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم، ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل، وهو قول أهل العراق.

واختلف القول في المحصر إذا لم يجد هديا ففي قول لا بدل له فيتحلل والهدي في ذمته إلى أن يجد، والقول الثاني: له بدل، فعلى هذا اختلف القول فيه، ففي قول عليه صوم التمتع، وفي قول تقوم الشاة بدراهم ويجعل الدراهم طعاما فيتصدق، به فإن عجز عن الإطعام صام عن كل مد من الطعام يوما كما في فدية الطيب واللبس فإن المحرم إذا احتاج إلى ستر رأسه لحر أو برد أو إلى لبس قميص، أو مرض فاحتاج إلى مداواته بدواء فيه طيب فعل، وعليه الفدية، وفديته على الترتيب والتعديل فعليه ذبح شاة فإن لم يجد يقوم الشاة بدراهم والدراهم يشتري بها طعاما فيتصدق به، فإن عجز صام عن كل مد يوما. ثم المحصر إن كان إحرامه بغرض قد استقر عليه فذلك الغرض في ذمته وإن كان بحج تطوع فهل عليه القضاء؟ اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لا قضاء عليه وهو قول مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أن عليه القضاء، وهو قول مجاهد والشعبي والنخعي وأصحاب الرأي.

قوله تعالى (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) [أي فعليه ما تيسر من الهدي] ومحله رفع وقيل: ما في محل النصب أي فاهدي ما استيسر والهدي جمع هدية وهي اسم لكل مَا يهدى إلى بيت الله تقربا إليه، وما استيسر من الهدي شاة، قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأنه أقرب إلى اليسر، وقال الحسن وقتادة: أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة.

قوله تعالى: (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ) أي ثلاثة أيام (أَوْ صَدَقَةٍ) أي ثلاثة آصع على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع (أَوْ نُسُكٍ) واحدتها نسيكة أي ذبيحة، أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، أيتها شاء ذبح، فهذه الفدية على التخيير والتقدير، ويتخير بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم إلا هديا يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر، وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء

ولوجوب دم التمتع أربع شرائط: أحدهما أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج، والثاني أن يحج بعد الفراغ من العمرة في هذه السنة، والثالث أن يحرم بالحج في مكة ولا يعود إلى الميقات لإحرامه، الرابع أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، فمتى وجدت هذه

الشرائط فعليه ما استيسر من الهدي، وهو دم شاة يذبحه يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج يجوز عند بعض أهل العلم كدماء الجنايات، وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز قبل يوم النحر كدم الأضحية.

قوله تعالى: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ) أي إن لم تجدوا الهدي فصوموا ثلاثة أيام، يصوم يوما قبل التروية ويوم التروية، ويوم عرفة، ولو صام قبله بعدماً أحرم بالحج يجوز، ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاث أيام التشريق.

يروى ذلك عن عائشة وابن عمر وابن الزبير وهو قول مالك والأوزاعي وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: (وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ) أي صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم، فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز، وهو قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن ابن عمر وابن عباس وقيل يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحج، وهو المراد من الرجوع المذكور في الآية.

قوله تعالى: (ذَلِكَ) أي هذا الحكم و هو وجوب الهدي على المتمتع (لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) واختلفوا في حاضري المسجد الحرام:
1-فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة وهو قول مالك
2-وقيل: هم أهل الحرم وبه قال طاووس من التابعين
3-وقال ابن جريج: أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلتان
4-وقال الشافعي رحمه الله: كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضري المسجد الحرام
5-وقال عكرمة: هم من دون الميقات
6-وقيل هم أهل الميقات فما دونه، وهو قول أصحاب الرأي

تأملات

ترتبط الشعائر التعبدية و العبادات البدنية في كتاب الله تعالى دائما بتقوى الله تعالى، فهي المحرك لهذه العبادات و الثمرة منها في ذات الوقت، فمن يتق الله يقدم على طاعته، و من أقدم على طاعته مخلصا محسنا كانت ثمرة عمله زيادة في تقواه، فنرى في هذه الآية بعد أن أمر الله تعالى بإتمام الحج و العمرة وذكر طائفة من التشريعات فيها ختم الآية بقوله تعالى: "واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب"، و كذلك في سائر العبادات:
1- ففي الجهاد: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون"
2- و في الصوم: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون"
3-وفي الحج هذه الآية و غيرها
4-وفي الأضحية: "لن ينال الله لحومها و لا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم"
5-وفي التربية: "وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى"
6-وفي الصلاة و الزكاة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون"

الحديث و السنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة"

ملخص ما حدث في صلح الحديبية أن النبي صلى الله عليه و سلم و أصحابه أرادوا العمرة و لكن قريش منعتهم ثم أبرم النبي صلى

الله عليه و سلم معهم صلحا فيه أنهم يعودون هذا العام و لا يعتمرون، فهذه صورة من صور "الإحصار"، فقد أحرموا و لبوا و لكنهم لم يتمكنوا من إتمام العمرة، وفي هذه الأحداث يقول المسور بن مخرمة: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا، فوالله ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك فاخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ولم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما"

(السورة: البقرة / الآية: 197)

{الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب}

تفسير

قوله تعالى:"فلا رفث و لا فسوق ولا جدال في الحج" الرفث هو الجماع أو الكلام مع الزوجة الذي فيه إشارة للجماع أو المقدمات التي تؤدي إلى الجماع، و قال البعض هو كل فاحش و قبيح من القول، أما الفسوق: قال ابن عباس: هو المعاصي كلها وهو قول طاووس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهري والربيع والقرظي، وقال ابن عمر: هو ما نهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر، وأخذ الأشعار، وما أشبههما وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد؛ هو السباب بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" وقال الضحاك هو التنابز بالألقاب بدليل قوله تعالى: "وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ" (11-الحجرات).أما الجدال: قال ابن مسعود وابن عباس: الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه، وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبير وعكرمة والزهري وعطاء وقتادة، وقال القاسم بن محمد: هو أن يقول بعضهم الحج اليوم ويقول بعضهم الحج غدا، وقال القرظي: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم وقال مقاتل: هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم في حجة الوداع وقد أحرموا بالحج: "اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدي" قالوا كيف نجعله عمرة وقد سمينا الحج؟ فهذا جدالهم، وقال ابن زيد: كانوا يقفون مواقف مختلفة كلهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم يتجادلون فيه، وقيل: هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بالمزدلفة، وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وكان بعضهم يحج في ذي الحجة فكل يقول ما فعلته فهو الصواب، فقال جل ذكره (وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) أي استقر أمر الحج على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا اختلاف فيه من بعد.

أسباب النزول

قوله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) نزلت في ناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون نحن متوكلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا؟ فإذا قدموا مكة سألوا الناس، وربما يفضي بهم الحال إلى النهب والغصب، فقال الله عز وجل (وَتَزَوَّدُوا) أي ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم، قال أهل التفسير: الكعك والزبيب والسويق والتمر ونحوها (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) من السؤال والنهب (وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ) يا ذوي العقول.

فقه

قوله تعالى: "الحج أشهر معلومات" أي وقت الحج أشهر معلومات وهي: شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فلا يجوز أن ينوي أحد الحج قبل شوال، فمن أدى العمرة في هذه الأشهر ثم تحلل ثم نوى الحج كان متمتعا.

أخلاق و تهذيب

على الحجيج ترك الرفث و الفسوق والجدال في الحج، و المتأمل في هذه الأمور يرى أن ترتيبها بترتيب صعوبة الامتناع عنها فمن السهل أن يمتنع الحاج عن مجامعة زوجته ثم يأتي الأصعب و هو ترك المعاصي خاصة معاصي اللسان و سرعة الغضب مع الجهد و المشقة ثم ترك الجدال وهو أكثر ما يشاهد في الحج، فيشغل الشيطان الحجاج بالجدال خاصة في الأمور الفقهية، فهذا يتهم ذاك بأن حجه باطل، وهذا يصر بأن ذاك عليه دم، وهذا يقول نرمي قبل الزوال و ذاك يقول نرمي بعده، و الآخر يقول لابد من جمع الحصى من مزدلفة و الآخر يقول بل من منى، و آخر يريد تأخير طواف الإفاضة ليجعله مع الوداع و الآخر يقول لا يجوز...

وصيتي لمن ذهب إلى الحج أن يتعلم المناسك من من يثق فيه من العلماء ثم إذا كان هناك فعليه بنفسه، فأن سأله أحد أجابه فإن حاول استدراجه إلى جدال قال هذا ما أعلم و إن شئت فاسأل غيري، فإن رأى أحدا يخالف ما يعتقد أنه الصواب ووجد أن يصوبه فليسأله أولا هل تعلمت هذا من عالم أفتاك به فإن قال نعم تركه و إن قال لا أعطاه ما عنده و انصرف.

تأملات

إن المتأمل للعبادات التي فرضها الله على المسلمين يجد في ثناياها أمران: 1-زيادة التقوى 2-الارتقاء بالأخلاق وهذا واضح جلي في هذه الآية التي تشير إلى أن الحج ينبغي أن ينضبط بأمور أخلاقية: "فلا رفث و لا فسوق و لا جدال في الحج" و تختتم الآية: "و تزودوا فإن خير الزاد التقوى" وكذلك سائر العبادات و قد أشرت في تدوينة سابقة إلى ارتباط التقوى بالعبادات و أشير هنا إلى ارتباط الأخلاق بالعبادات:
1-ففي الحج: هذه الآية تشير إلى ارتباط الحج بالأخلاق
2-و في الصلاة: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر"
3-و في الصيام: قول النبي صلى الله عليه و سلم: "من لم يدع قول الزور و العمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه و شرابه"، وقوله صلى الله عليه و سلم:" فإن قاتله أحد أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم"
4-و في الصدقة: "قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى"
5-و في الجهاد: الكثير من أخلاق الحروب في الآيات و الأحاديث التي لم تطبق عمليا إلا بالمسلمين مهما تشدق بها غيرهم

الحديث و السنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"

(السورة: البقرة / الآية: 198)

{ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين}

تفسير

اختلفوا في المعنى الذي لأجله سمي الموقف عرفات واليوم عرفة

1-فقال عطاء: كان جبريل عليه السلام يري إبراهيم عليه السلام المناسك ويقول عرفت؟ فيقول عرفت فسمي ذلك المكان عرفات واليوم عرفة

2-وقال الضحاك: إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة وتعارفا فسمي اليوم يوم عرفة والموضع عرفات.

3-وقال السدي لما أذن إبراهيم في الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتها له فخرج فلما بلغ الجمرة عند العقبة استقبله الشيطان ليرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية، فرماه وكبر فطار، فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان أنه لا يطيعه ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز، فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز فسمي ذا المجاز، ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت فسمي الوقت عرفة والموضع عرفات حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع أي قرب إلى جمع، فسمي المزدلفة.

4-وروي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه أنه يؤمر بذبح ابنه فلما أصبح روى يومه أجمع أي فكر، أمن الله تعالى هذه الرؤيا أم من الشيطان؟ فسمي اليوم يوم التروية، ثم رأى ذلك ليلة عرفة ثانيا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمي اليوم يوم عرفة.

5-وقيل سمي بذلك لأن الناس يعترفون في ذلك اليوم بذنوبهم.

6-وقيل سمي بذلك من العرف وهو الطيب، وسمي منى لأنه يمنى فيه الدم أي يصب فيكون فيه الفروث والدماء ولا يكون الموضع طيبا وعرفات طاهرة عنها فتكون طيبة.

فقه

قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها فأنزل الله تعالى (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ) في مواسم الحج، وروي عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نكري في هذا الوجه، يعني إلى مكة، فيزعمون أن لا حج لنا، فقال: ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون؟ قلت بلى، قال: أنت حاج: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الذي سألتني عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) أي حرج (أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا) أي رزقا (مِنْ رَبِّكُمْ) يعني بالتجارة في مواسم الحج.

قوله تعالى: (فَاذْكُرُوا اللَّهَ) بالدعاء والتلبية (عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ) ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى المحسر، وليس المأزمان ولا المحسر من المشعر، وسمي مشعرا من الشعار وهي العلامة لأنه من معالم الحج، وأصل الحرام: من المنع فهو، ممنوع أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، وسمي المزدلفة جمعا: لأنه يجمع فيه بين صلاتي العشاء، والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس، ومن جَمْعٍ قبل طلوعها من يوم النحر.

قال جابر: "دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس"

اللغة

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ) أى دفعتم، والإفاضة: دفع بكثرة وأصله من قول العرب: أفاض الرجل ماء أي صبه (مِنْ عَرَفَاتٍ) هي جمع عرفة، جمع بما حولها وإن كانت بقعة واحدة كقولهم ثوب أخلاق يقصدون ثوب خلق.

(السورة: البقرة / الآية: 199)

{ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم}

تفسير

قوله تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) قال أهل التفسير، كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها، وهم الحمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وقال بعضهم خاطب به جميع المسلمين. وقوله تعالى (مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ) من جَمْعٍ (أى مزدلفة) أي ثم أفيضوا من جمع إلى منى.

تأملات

من الأمور التي تسترعي الانتباه أن المسلم يستغفر الله تعالى بعد العبادات الكبيرة العظيمة! فما يتبادر إلى الذهن عند البعض أن المسلم بعد الفراغ من العبادات يحمد الله و يشعر أنه أدى عبادة لله و ما إلى ذلك من الأمور و لكن الله تعالى و نبيه صلى الله عليه و سلم يعلمنا أن نستغفر الله بعد العبادات فهذه الآية :"واستغفروا الله إن الله غفور رحيم" بعد الإفاضة أي بعد الفراغ من يوم عرفة ثم المبيت بمزدلفة أي بعد الفراغ من ركن الحج الأعظم، و يعلمنا النبي صلى الله عليه و سلم أن نقول بعد الفراغ من الصلاة: "أستغفر الله...أستغفر الله...أستغفر الله...اللهم أنت السلام و منك السلام تباركت يا ذا الجلال و الإكرام"

و السر في هذا أن العبادة لا تخلو من تقصير أو نقص، فيستشعر المؤمن هذا وأنه لم يؤد حق الله، فحقه تعالى أن يعبد فلا يكفر و أن يطاع فلا يعصى و أن يذكر فلا ينسى، ولن يأت أحد بالعبادة كاملة دون نقص أو تقصير. فالمؤمن يجمع بين الإحسان و الإشفاق و المنافق يجمع بين الإساءة و الأمن وهذا ما أوضحه النبي صلى الله عليه و سلم فقد روى الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنهاقالت : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : " والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة" قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ، ويسرقون ؟ قال : لا ، يا بنت الصديق أو يا بنت أبي بكر ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ."

(السورة: البقرة / الآية: 200)

{فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق}

تفسير

قوله تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ) أي فرغتم من حجكم وذبحتم نسائككم، أي ذبائحكم، يقال: نسك الرجل ينسك نسكا إذا ذبح نسيكته، وذلك بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فَاذْكُرُوا اللَّهَ) بالتكبير والتحميد والثناء عليه

(كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُم) فيها أقوال:

1-وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها، فأمرهم الله تعالى بذكره وقال: فاذكروني فأنا الذي فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم.

2-قال ابن عباس وعطاء: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء، وذلك أن الصبي أول ما يتكلم يلهج بذكر أبيه لا بذكر غيره فيقول الله فاذكروا الله لا غير كذكر الصبي أباه أو أشد.

3-وسئل ابن عباس عن قوله (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُم) فقيل قد يأتي على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه، قال ابن عباس: ليس كذلك ولكن أن تغضب لله إذا عصي أشد من غضبك لوالديك إذا شتما، وقوله تعالى (أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا) يعني: وأشد ذكرا، وبل أشد، أي وأكثر ذكرا.

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا) أراد به المشركين كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج إلا الدنيا يقولون اللهم أعطنا غنما وإبلا وبقرا وعبيدا، وكان الرجل يقوم فيقول يارب: إن أبي كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال فأعطني مثل ما أعطيته، قال قتادة هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب (وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) حظ ونصيب،(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) يعني المؤمنين.

(السورة: البقرة / الآية: 201)

{ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار}

تأملات

إن الدنيا و الآخرة في الملل والنحل المختلقة و المحرفة عبر التاريخ ضدان متنافران متناحران، فهذه الملل قد أجبرت من أراد الآخرة (في زعمهم) أن يتخلى عن الدنيا و يعيش حياة الرهبنة و الانقطاع عن الدنيا، فهذا لا يتزوج و ذاك لا يغتسل لأعوام و الآخر لا يأكل من بعض المباحات الطيبات لشهور و البعض يحرم عليه تعلم العلوم الكونية و إلا اتهم بالزندقة و...فجاء الإسلام ليصنع تلكم العجيبة بأن جمع بين الدنيا و الآخرة، فجعل الآخرة هدف المسلم و جعل الدنيا مزرعة الآخرة، فحث المسلم على العمل و السعي و الكسب و أمره أن يكون هذا كله لله، فتكون الدنيا في يده و ليست في قلبه، فهو الدين الوحيد الذي ينتظم و يستقر فيه فهم الإنسان لطبيعة و جوده و الغاية من خلقه و الحكمة من وجوده في هذه الدار و العمل فيها للدار التي بعدها، و يعبر عن هذا دعاء أمة محمد صلى الله عليه و سلم: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار"

(السورة: البقرة / الآية: 203)

{ واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون}

تفسير

قوله تعالى (وَاذْكُرُوا اللَّهَ) يعني التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات (فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) الأيام المعدودات: هي أيام التشريق 11 و 12 و 13 من ذي الحجة، وهي أيام منى ورمي الجمار، سميت معدودات لقلتهن كقوله: دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ (20-يوسف) والأيام المعلومات: عشر ذي الحجة آخرهن يوم النحر. هذا قول أكثر أهل العلم وروي عن ابن عباس المعلومات: يوم النحر ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق، وعن علي قال: المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وقال عطاء عن ابن عباس المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق. وقال محمد بن كعب: هما شيء واحد وهي أيام التشريق وروي عن نبيشة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله".

قوله تعالى: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) أراد أن من نفر من الحاج في اليوم الثاني من أيام التشريق (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) وذلك أن على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، عند كل جمرة سبع حصيات، ورخص في ترك البيتوتة لرعاء الإبل وأهل سقاية الحاج ثم كل من رمى اليوم الثاني من أيام التشريق وأراد أن ينفر فيدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك له واسع لقوله تعالى (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ثم ينفر، قوله تعالى (وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) يعني لا إثم على من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله ومن تأخر حتى ينفر في اليوم الثالث (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) في تأخره. وقيل: معناه (فَمَنْ تَعَجَّلَ) فقد ترخص (فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) بالترخص (وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) بترك الترخص وقيل معناه رجع مغفورا له، لا ذنب عليه تعجل أو تأخر وهذا قول علي وابن مسعود.

قوله تعالى: (لِمَنِ اتَّقَى) أي لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئا نهاه الله عنه كما قال: "من حج فلم يرفث ولم يفسق" قال ابن مسعود: إنما جعلت مغفرة الذنوب لمن اتقى الله تعالى في حجه، وفي رواية الكلبي عن ابن عباس معناه (لِمَنِ اتَّقَى) الصيد لا يحل له أن يقتل صيدا حتى تخلو أيام التشريق، وقال أبو العالية ذهب إثمه أن اتقى فيما بقي من عمره.

فقه

ومن الذكر في أيام التشريق: التكبير، واختلفوا فيه فروي عن عمر وعبد الله بن عمر أنهما كانا يكبران بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجلس وعلى الفراش والفسطاط وفي الطريق ويكبر الناس بتكبيرهما ويتأولان هذه الآية. والتكبير أدبار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يبتدأ التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة ويختتم بعد العصر من آخر أيام التشريق، يروى ذلك عن علي رضي الله عنه، وبه قال مكحول، وإليه ذهب أبو يوسف رضي الله عنه.

(السورة: البقرة / الآية: 217)

{يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}

تفسير

(قِتَالٍ فِيهِ) أي يسألونك عن القتال فيه أحلال أم حرام سؤالا استنكاريا يستنكرون به عمرو بن الحضرمي في رجب وقد قتلته سرية للنبي صلى الله عليه و سلم و هم يظنون أنهم في جمادى و أن رجب لم يدخل بعد.

(قُلْ) يا محمد (قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) أي عظيم فبدء القتال في الأشهر الحرم محرم في الجاهلية و الإسلام إلا أن أهل الجاهلية كانوا يلجؤون إلى النسيئ ليحلوا ما حرم الله.

تم الكلام عند قوله "قل قتال فيه كبير"، ثم ابتدأ جملة أخرى فقال (وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي فصدكم المسلمين عن الإسلام (وَكُفْرٌ بِهِ) أي كفركم بالله (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي كفركم بالمسجد الحرام وقيل وصدكم عن المسجد الحرام (وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ) أي إخراج أهل المسجد (مِنْهُ أَكْبَرُ) وأعظم وزرا (عِنْدَ اللهِ)، (وَالفِتْنَةُ) أي الشرك الذي أنتم عليه (أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) أي من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرامز

فلما نـزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة إذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام.

ثم قال: (وَلا يَزَالُونَ) يعني مشركي مكة، وهو فعل لا مصدر له مثل عسى (يُقَاتِلُونَكُم) يا معشر المؤمنين (حَتَّى يَرُدُّوكُمْ) يصرفوكم (عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ) جزم بالنسق (وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ) بطلت (أَعْمَالُهُم) حسناتهم (فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

أسباب النزول

قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ) سبب نـزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش، وهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم أخت أبيه في جمادى الآخرة، قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين: سعد بن أبي وقاص الزهري وعكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غزوان السلمي وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وخالد بن بكير وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتابا وقال له: "سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين فإذا نـزلت فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك ولا تستكرهن أحدا من أصحابك على السير معك" فسار عبد الله يومين ثم نـزل وفتح الكتاب فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فسر على بركة الله بمن معك من أصحابك حتى تنـزل بطن نخلة فترصد بها عير قريش لعلك تأتينا منها بخير، فلما نظر في الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك، وقال إنه نهاني أن أستكره أحدا منكم، فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كره فليرجع، ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد حتى كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له بحران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما يعتقبانه فتخلفا في طلبه ومضى ببقية أصحابه حتى نـزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف.

فبينما هم كذلك إذ مرت عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة الطائف، فيهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم، فقال عبد الله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فحلقوا رأس عكاشة فوق ثم أشرفوا عليهم فقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم، فأمنوهم، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب فتشاور القوم وقالوا لئن تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم في مواقعة القوم، فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين [وهو أول قتيل في الهجرة وأدى النبي صلى الله عليه وسلم دية ابن الحضرمي إلى ورثته من قريش. قال مجاهد وغيره لأنه كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش عهد، وادع أهل مكة سنتين أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه]

واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين في الإسلام وأفلت نوفل فأعجزهم، واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الحرائب وعير بذلك أهل مكة من كان فيها من المسلمين وقالوا: يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه!

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لابن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ شيئا من ذلك، فعظم ذلك على أصحاب السرية، وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط في أيديهم، وقالوا: يا رسول الله إنا قد قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ وأكثر الناس في ذلك، فأنـزل الله تعالى هذه الآية، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس، فكان أول خمس في الإسلام، وقسم الباقي بين أصحاب السرية، وكان أول غنيمة في الإسلام وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم فقال "بل نقفهم حتى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما"، فلما قدما فاداهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقتل يوم بئر معونة شهيدا، وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافرا وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعا فقتله الله، فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية، فهذا سبب نـزول هذه الآية اضغط هنا

قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) يعني رجبا سمي بذلك لتحريم بدء القتال فيه، و الأشهر الحرم هي ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب.

(السورة: آل عمران / الآية: 96)

{إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين}

تفسير

للعلماء أقوال في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ):

1-فقال بعضهم: هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، خلقه الله قبل الأرض بألفي عام، وكانت زَبْدَةً بيضاءَ على الماء فدُحيت الأرض من تحته، هذا قول عبد الله بن عمر ومجاهد وقتادة والسدي.

2-وقال بعضهم: هو أول بيت بني في الأرض، رُوي عن علي بن الحسين: أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور، وأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتا على مثاله وقدره، فبنوا واسمه الضراح، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

3-ورُوي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، وكانوا يحجونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بر حجك يا آدم حججنا هذا البيت قبلك بألف عام.

4-ويرُوى عن ابن عباس أنه قال: أراد به أنه أول بيت بناه آدم في الأرض.

5-وقيل: هو أول بيت مبارك وضع في الأرض هدىً للناس، يروى ذلك عن علي بن أبي طالب

6-قال الضحاك: أول بيت وُضع فيه البركة

7-وقيل: أول بيت وضع للناس يُحجُّ إليه.

8-وقيل : أول بيت جعل قبلة للناس.

9-وقال الحسن والكلبي: معناه: أول مسجد ومتعَبِّدٍ وضع للناس يعبد الله فيه كما قال الله تعالى: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ يعني المساجد.

أسباب النزول

سبب نـزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل، فأنـزل الله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) و الآية التي تليها (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَام إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَه كَانَ آمِنًا) وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس.

وهذا ليس انتقاصا من مكانة بيت المقدس و لكنه بيان أن الكعبة هي الأقدم و أنها تفضل بيت المقدس مع ما لبيت المقدس من فضل.

الحديث و السنة

عن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه، قال سمعت أبا ذر يقول: قلت يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولا؟ قال: "المسجد الحرام، قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتْك الصلاة بعدُ فصلِّ فإن الفضل فيه"

اللغة

قوله تعالى: (لَلَّذِي بِبَكَّةَ):

1-قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقبت بين الباء والميم، فتقول: سَبَّدَ رأسه وسمَّده وضربة لازبٍ ولازم.

2-وقال آخرون: بكة موضع البيت ومكة اسم البلد كله.

3-وقيل: بكة موضع البيت والمطاف، سميت بكة: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدحمون يبك بعضُهم بعضًا، ويصلي بعضهم بين يدي بعض ويمر بعضهم بين يدي بعض.

4-وقال عبد الله بن الزبير: سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقها فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله.

5-وأما مكة سميت بذلك لقلة مائها من قول العرب: مَكَّ الفصيل ضرْعَ أمه وأمتكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن.

(السورة: آل عمران / الآية: 97)

{فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين}

تفسير

قوله تعالى: (وَمَنْ دَخَلَه كَانَ آمِنًا) وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: "رب اجعلْ هذا بلدًا آمنا"، وله عدة معان:

1-كانت العرب في الجاهلية يقتل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض ومن دخل الحرم أمن من القتل والغارة، وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسرين قال الله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (سورة العنكبوت الآية 67)

2-وقيل: المراد به أن من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آمنًا، كما قال تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (سورة الفتح الآية 27)

3-وقيل: هو خبر بمعنى الأمر تقديره: ومن دخله فأمنُّوه، كقوله تعالى: فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ (البقرة :197) أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن من وجب عليه القتل قصاصًا أو حدًا فالْتجأ إلى الحرم فلا يُستوفَى منه فيه، ولكنه [لا يُطعم] ولا يُبايع ولا يُشاري حتى يخرج منه فيقتل، قاله ابن عباس، وبه قال أبو حنيفة، وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يُستوفى فيه أما إذا ارتكب الجريمة في الحرم يستوفى فيه عقوبته بالاتفاق.

4-وقيل: معناه ومن دخله معظّمًا له متقربًا إلى الله عز وجل كان آمنًا يوم القيامة من العذاب.

فقه

قوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) أي: ولله فرضٌ واجبٌ على الناس حجُّ البيت.

والحج أحد أركان الإسلام، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة والحج وصوم رمضان".

ولِوُجوب الحج خمسُ شرائط: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة، فلا يجب على الكافر ولا على المجنون، ولو حجا بأنفسهما لا يصح لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لفعل المجنون، ولا يجب على الصبي ولا على العبد، ولو حج صبي يعقل، أو عبد يصح حجهما تطوعًا لا يسقط به فرض الإسلام عنهما فلو بلغ الصبي، أو عُتِق العبد بعدما حج واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج وجب عليه أن يحج ثانيًا، ولا يجب على غير المستطيع، لقوله تعالى: (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا) غير أنه لو تكلف فحج يسقط عنه فرض الإسلام.

والاستطاعة نوعان، أحدهما: أن يكون مستطيعًا بنفسه والآخر: أن يكون مستطيعًا بغيره، أما الاستطاعة بنفسه أن يكون قادرًا بنفسه على الذهاب ووَجَد الزادَ والراحلة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما الحاج؟ قال: "الشعث التفل" فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله: أي الحج أفضل؟ قال: "العجُّ والثج" فقام رجل آخر فقال: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: "زاد وراحلة".

وتفصيله: أن يجدَ راحلةً تصلح لمثله، ووجدَ الزادَ للذهاب والرجوع، فاضلا عن نفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وعن دَيْن يكون عليه، ووجد رفقة يخرجُون في وقت جرت عادة أهل بلده بالخروج في ذلك الوقت، فإن خرجوا قبله أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلا أن يقطعوا كل يوم أكثر من مرحلة لا يلزمهم الخروج في ذلك الوقت ويشترط أن يكون

الطريق آمنًا فإن كان فيه خوف من عدوٍ مسلم أو كافر أو رَصديّ يطلب شيئا لا يلزمه، ويُشترط أن تكون المنازل المأهولة معمورة يجد فيها الزاد والماء، فإن كانَ زمان جُدوبةٍ تُفرّق أهلُها أو غارتْ مياهها فلا يلزمه، ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر على المشي، أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لا يلزمه الحج، ويستحب لو فعل، وعند مالك يلزمه.

أما الاستطاعة بالغير هو: أن يكون الرجل عاجزًا بنفسه، بأن كان زَمِنًا أو به مرض غير مرجو الزوال، لكن له مال يمكنَّه أن يستأجر من يحج عنه، يجب عليه أن يستأجر، أو لم يكن له مال لكن بذل له ولدُه أو أجنبيّ الطاعةَ في أن يحج عنه، يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمدُ صِدقَه، لأن وجوب الحج يتعلق بالاستطاعة، ويقال في العرف: فلان مستطيع لبناء دار وإن كان لا يفعله بنفسه، وإنما يفعله بماله أو بأعوانه.

وعند أبي حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة، وعند مالك لا يجب على المعضوب في المال.

وحُجّةُ من أوجبه ما ورد عن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خَثْعَم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: "نعم".

قوله تعالى: (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال ابن عباس والحسن وعطاء: جَحَدَ فَرْضَ الحج، وقال مجاهد: من كفر بالله واليوم الآخر.

وقال سعيد بن المسيب: نزلت في اليهود حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب.

وقال السدي: هو من وجد ما يحج به ثم لم يحج حتى مات فهو كفرٌ به فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من لم تَحْبسْه حاجةٌ ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر، ولم يحجَّ فليمتْ إنْ شاء يهوديا وإنْ شاء نصرانيًا"

تأملات

إن مكة قد اجتمع فيها الكثير من الآيات البينات منها:

1- الحجر الأسود الذي و هو حجر من الجنة فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الحجر الأسود من حجارة الجنة، وما في الأرض من الجنة غيره، وكان أبيض كالمها، ولولا ما مسه من رجس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برئ".

و قد قام النبي صلى الله عليه و سلم بوضعه في مكانه في قصة إعادة بناء الكعبة المشتهرة في السيرة، و قد تعرض بعد ذلك لحادث أثيم على يد القرامطة الذين أخذوا الحجر وغيبوه 22 سنة ، وردّ إلى موضعه سنة 339 هـ ، فلقد غزى أبو طاهر القرمطي القطيف واحتلها واحتل مكة المكرمة وانتهب الحجر الأسود 317هـ وفي 318هـ تقريبا سن الحج إلى الجش بالأحساء بوضع الحجر الأسود في بيت كبير في قرية الجش وأمر القرامطة سكان منطقة القطيف بالحج إلى ذلك المكان ، ولكن الأهالي رفظوا تلك الأوامر ، فقتل القرامطة أناساً كثيرين من أهل القطيف.

و قد ورد عن النبي صلى الله عليه و سلم أحاديث حول الحجر الأسود منها:

(الحجر الأسود من حجارة الجنة)

(نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم)

(إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب) يعني بالركن ههنا : الحجر الأسود ، وسمي ركنا لأنه مبني في الركن

(إن مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطا)

(لولا ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا شفي وما على الأرض شيء من الجنة غيره)

(ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق)

و من الأمور التي تستدعي الملاحظة أنك إن كنت تقبل الحجر الأسود في وقت ما فإنك تقوم بعبادة أنت الوحيد الذي يقوم بها في ذلك الوقت.

و يجدر التذكير بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال وهو يقبل الحجر الأسود: "والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا ان رسول الله صلى الله عليه و سلم قبلك ما قبلتك".

وهذا الرابط يحتوي على مقالة طويلة عن تاريخ الحجر الأسود و أحكام فقهية متعلقة به:
http://www.saaid.net/mktarat/hajj/154.htm

و من الآيات في البيت:

الحطيم: وهو الحِجر (ويسميه الناس خطأ بحِجر إسماعيل) وهو : المكان الواقع بين جدار الكعبة الذي يحده الركنان العراقي والشامي والجدار القصير (على شكل قوس) الذي يليهما على بعد ستة أذرع تحت ميزاب الكعبة المشرفة. هذا المكان جزء من الكعبة، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أحب أن ادخل البيت فأصلى فيه فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فادخلني الحجر فقال : "صلى فيه إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت".

سمي الحطيم حطيما لأن البيت رفع وترك هذا الجدار محطوما لأن قريشا حين أرادت أن تبني البيت اشترطت أن تكون النفقة حلالا فجمعت المال الحلال فلم يكف لبناء البيت كله فرفعته و جعلت هذا الجدار محطوما كما روت عائشة رضي الله عنها و ثبت في الصحيحين أن رسول الله قال لها: " ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة ؟ ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة، وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا، وأدخلت فيها الحجر " .

وقيل سمي حطيما لأن العرب كانت تطرح فيه من الثياب فتبقى حتى تنحطم بطول الزمان، فيكون فعيلا بمعنى فاعل، و قيل لأن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأيمان، ويستجاب فيه الدعاء للمظلوم على الظالم، فقل من دعا هنالك على ظالم إلا أهلك، وقل من حلف هناك آثما إلا عجلت له العقوبة.

الحطيم جزء من البيت فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: "يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم"، فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه قال يزيد وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل قال جرير فقلت له أين موضعه قال أريكه الآن فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال ها هنا قال جرير فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها.

فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحِجْر فرده إلى بنائه. وبعدها أراد الخليفة المهدي أن يرد بناء البيت على قواعد إبراهيم إلا أن الإمام مالك بن أنس قد منعه من

ذلك وقال لهم أتركوا ذلك حتى لا يصبح بيت الله عز وجل لعبة بيد الملوك والخلفاء يبني هذا ويهدم هذا فتذهب هيبته من صدور الناس.

ومن الأمور اللافتة للنظر هنا أن قريشا جعلت باب البيت عاليا عن الأرض و جعلت له مفتاحا حتى تأذن لمن شاءت و تمنع من شاءت من الدخول إلى البيت، و لكن من شاء أن يصلي داخل الكعبة فليصل في الحجر فهو مفتوح للجميع و ليس له مفتاح و لا يحتاج لإذن أحد، فسبحان الله الذي لم يجعل الصلاة داخل الكعبة بإذن أحد من الناس.

ويجب أن ينتبه المسلمون الى كون أن الحجر جزءً من البيت وأن الطواف لابد وأن يكون من وراءه كما فعل رسول الله وكما هو إجماع العلماء، فمن طاف من خلال الحجر فطوافه فاسد، وفي ذلك قال النووي: "والجمهور بأن النبي صلى الله عليه وسلم طاف من وراء الحِجْر ، وقال : لتأخذوا مناسككم . ثم أطبق المسلمون عليه من زمنه صلى الله عليه وسلم إلى الآن ، وسواء كان كله من البيت أم بعضه ، فالطواف يكون من ورائه كما فعل النبي صلى الله عليه و سلم".

و من الآيات في البيت:

ماء زمزم: وسمي كذلك لأن السيدة هاجر قالت له زم زم أي تجمع تجمع وهي تحطه بيديها كي لا يذهب هنا أو هناك وفيها قال النبي صلى الله عليه و سلم: "رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت زمزم عينا معينا".
و ماء زمزم "طعام طعم، وشفاء سقم" كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد بقوله: "طعام طعم"؛ أي إنه يفي عن سائر الأطعمة، و من ذهب إلى هناك و شرب منه يلاحظ أنه طوال اليوم لا يشعر بالجوع كسائر الأيام، ومن الناس من يعيش عليه وحده أو به و قليل من التمرات لأيام دون أن يعاني من مشاكل صحية، ويقول ابن القيم:(شاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من نصف شهر وأكثر ولا يجد جوعاً ،ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً). "وشفاء سقم"؛ أي أنه بإذن الله تعالى يشفي به المؤمنين الصادقين.

و حديث "ماء زمزم لما شرب له" له طرق وشواهد يصل بها إلى مرتبة الحسن، وأملى الحافظ ابن حجر مجلساً خاصاً في طرق هذا الحديث، وأعلى من صححه: سفيان بن عيينة، فقد صح عنه أن رجلاً قال له: ما قولك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ماء زمزم لما شرب له" أثابت عندك؟ فقال: نعم. فقال: لقد شربت زمزم آنفاً على أن تحدثني مئة حديث: فقال له: اجلس، فجلس وأسمعه مئة حديث، ولكن ضعف هذا الحديث فضيلة الشيخ أبو اسحاق الحويني حفظه الله و ذلك كما في الرابط:
http://www.youtube.com/watch?v=wGhG0VXFOS4&feature=related

وقد شرب العلماء زمزم بنوايا عديدة، فها هو الحاكم صاحب المستدرك يشربه بنية الإحسان بالتصنيف، وقد أحسن في تصنيفاته رحمه الله.

وها هو ابن حجر شرب زمزم بنية أن يكون كالحافظ الذهبي في معرفته بالرجال! وكان رحمه الله يقول: لا يحصى كم شربه من الأئمة لأمور نالوها وقال: أنا شربته في بداية طلبي للحديث بنية أن يرزقني الله حالة الإمام الذهبي في الحفظ ومعرفة الرجال.
وقال: حججت بعد عشرين سنة وأنا أجد في نفسي المزيد من تلك الرتبة. وقال: شربته فيما بعد بنية أن يجعلني الله كابن تيمية في معرفة الفرق والأديان. وقال ابن الهمام (في فتح القدير): والعبد الضعيف -يقصد نفسه- شربه للاستقامة والوفاة على حقيقة الإسلام.

وقد شربه عبد الله بن المبارك قائلا: "اللهم إني أشرب ماء زمزم لظمأ يوم القيامة".

وهذا هو الامام الشافعي رحمه الله يقول: شربنا من زمزم بنية العلم فأعطانا الله العلم. يا ليتنا شربنا من زمزم بنية التقوى. ويقول أيضا "شربت زمزم لثلاث للرمي، فكنت أصيب العشرة من العشرة والتسعة من العشرة، وللعلم فها أنا كما ترون، ولدخول الجنة فأرجو حصول ذلك".

و قد حكى الإمام السيوطي في ترجمته الذاتية لنفسه: قال: لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور منها ان أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني. وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر. يقول: لقد أجابني الله عز وجل إلى طلبي حيث رزقت التبحر في

سبعة علوم هي: التفسير. والحديث. والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع.

و يجوز نقل ماء زمزم من مكة فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل معه ماء زمزم في الأداوي والقرب، وكان يصبه على المرضى ويسقيهم، وأخرج البيهقي بسند جيد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنه صلى الله عليه وسلم كان يرسل وهو بالمدينة، قبل أن تفتح مكة، إلى سهيل بن عمرو أن أهد لنا من ماء زمزم, فيبعث إليه بمزادتين.

ومن الآداب في شرب ماء زمزم: استقبال القبلة و التضلع (أي الشرب بكمية كبيرة حتى يشعر بالماء في ضلوعه و لا يبقى للماء مكان تستطيع الإضافة إليه) و ذكر اسم الله و الشرب ثلاثا و النية الصالحة ثم حمد الله و الدعاء بعده. و التضلع من علامات الإيمان أخرج بن ماجة عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ جَالِسًا فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ قَالَ مِنْ زَمْزَمَ قَالَ فَشَرِبْتَ مِنْهَا كَمَا يَنْبَغِي قَالَ وَكَيْفَ قَالَ إِذَا شَرِبْتَ مِنْهَا فَاسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَتَنَفَّسْ ثَلَاثًا وَتَضَلَّعْ مِنْهَا فَإِذَا فَرَغْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ

و المعجزة - التي تعد من دلائل النبوة الواضحة - أن يكون بئر زمزم في هذه الصحراء القاسية يسقي الحجيج لقرون من الزمان ومع هذا لا ينضب و مع تزايد أعداد الحجيج و العمار فإنه يكفيهم و لم يختل تركيبه الفريد المتوازن على مر العصور، ولكن مع هذا فمن الناس من يمر على هذه الآية ويظل على عناده و جحوده، فإنك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء.

و من الآيات في البيت:

مقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقف عليه عند بناء الكعبة وذلك حين ارتفع البناء و شق عليه رفع الحجارة، فعند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "فجعل إبراهيم يبني و إسماعيل يناوله الحجارة و يقولان: (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) حتى ارتفع البناء و ضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل إسماعيل يناوله الحجارة". وفي هذا الحجر أثر قدمي إبراهيم عليه السلام وتلك آية من آيات الله.

المقام من يواقيت الجنة فقد اخرج الحاكم و صححه ابن خزيمة و ابن حبان في صحيحهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الركن و المقام ياقوتتان من الجنة طمس الله نورهما ولولا ذلك لأضاءتا مابين المشرق و المغرب".

ومما خص الله به المقام حفظه له من تدنيس المشركين بالعبادة مع ما دأبوا عليه من تعظيم الأحجار فلم يعبده أهل الجاهلية، ولله في هذا الحكمة البالغة لئلا يقال إن الإسلام أقر تعظيم بعض ما كانت الجاهلية تعظمه من الأصنام.

يشرع أن يصلي الطائف عقب طوافه ركعتين خلف المقام بحيث يكون المقام بينه و بين الكعبة، لقوله تعالى: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى"، وفي المتفق عليه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: "قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين"، وفي حديث جابر في صفة حجه صلى الله عليه وسلم قال: "ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، فجعل المقام بينه و بين البيت".

ويشرع أن يقرأ في الركعتين مع الفاتحة في الأولى سورة الكافرون وفي الثانية سورة الإخلاص: لما جاء في حديث جابر: "أنه صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين قل هو الله احد وقل يا أيها الكافرون".

وهاتان الركعتان تشرعان بعد كل طواف، في أي ساعة من الليل أو النهار لحديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بالبيت و صلى أية ساعة من ليل أو نهار"

وكان الحَجر أول أمره ملتصقا بجدار الكعبة بحكم قيام إبراهيم عليه لبنائها، وظل كذلك أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيام أبي بكر رضي الله عنه، وطائفة من أيام عمر، فرأى عمر رضي الله عنه أن الحَجر يعوق الطواف بعض الشيء، وأنه لا يمكن

الناس من جدار البيت، وأن الطائفين مع ذلك يشوشون أثناء طوافهم على الذين يصلون عنده ركعتي الطواف، فأمر عمر رضي الله عنه بنقله من مكانه إلى جهة الشرق حيث هو الآن.

و عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طاف ومر بالحجر، قال له عمر رضي الله عنه: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم، قال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فلم يلبث إلا قليلا حتى نزل قوله تعالى: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى).

و من الآيات في البيت:

الطواف: إن الطواف حول الكعبة من الآيات البينات، فهذا الطواف لا ينقطع ليلا و لا نهارا و لا يتوقف أبدا إلا عند أداء الصلوات المفروضة، و هذا الطواف لم يتوقف حتى وقت اجتياح السيول للبيت الحرام، فلم يتوقف الطائفين بل اخذو يطوفون سباحة، فإذا أراد أحدهم تقبيل الحجر الأسود في كل شوط غطس إلى مستوى الحجر الأسود، فيقبله ثم يرتفع الى مستوى الماء ليكمل الطواف!

و قد بلغني أن هذه الآية البينة دفعت بعض غير المسلمين للدخول في الإسلام حينما تيقنوا منها نتيجة لمشاهدة القناة الفضائية السعودية التي تبث بثا حيا من الحرم، فإذا بهم يرون الطواف كل يوم و كل ساعة لا يتوقف، فكانت بداية هدايتهم!

ومن الآيات في البيت:

تحقق دعاء إبراهيم عليه السلام:

1-"ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم"

2-"ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم و ارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون"

3-"واذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر. قال و من كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير"

4-و تحقق وعد الله له "و أذن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق"

(السورة: المائدة / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد}

إن الله سبحانه جعل صيد البر حراما على المحرم، فهو من مفسدات الإحرام، وإذا نظرنا إلى الحكمة من ذلك فنجد أن البعض يقول أن الله تعالى أراد أن يكون المحرم في سلام مع جسمه فلا يأخذ من شعره أو أظفاره و في سلام مع الحيوانات أيضا فلا يصطادها، وإن كان هذا الكلام جيد و لكن الحقيقة هي ما اختتمت به هذه الآية: "إن الله يحكم ما يريد". هذا هو الدرس الرئيس المستفاد من كل مناسك الحج: التسليم و الانقياد لأوامر الله تعالى و جعل هذا المبدأ عقيدة تدخل في كل جوانب الحياة، فكما أمر الله تعالى بالطواف و السعي و الوقوف بعرفة و نهى المحرم عن الأخذ من شعره و أظفاره و نهاه عن الصيد فإن الله أمر بالصلاة و الصيام و الزكاة و

صلة الأرحام و أحل البيع و حرم الربا و شرع الحدود و...فما على المسلم إلا أن يقول سمعنا و أطعنا و أن يعلم أن الله يحكم ما يريد، وقد انتشرت الآيات في كتاب الله بهذا المعنى، ومنها:

"إن الله يحكم ما يريد"
"و الله يحكم لا معقب لحكمه"
"وما كان لمؤمن و لا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم"
"ألا له الخلق و الأمر"
"إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا وألئك هم المفلحون"
"فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما"
"وما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا"

و اعلم أن الإيمان بالله لا يتم إلا إذا آمن العبد بربوبية الله و ألوهية الله، فإيمانه بربوبية الله: أن يؤمن بأن الله خالقه و رازقة و هو من يدبر الأمر وأن هذا الكون ملك له، و في هذا قد يستوي المؤمن و الكافر كما قال الله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون" و قد يستوي معهم إبليس اللعين: "قال رب أنظرني..."، "...خلقتني من نار و خلقته من طين..."

و لكن توحيد الألوهية هو أن تفرد الله وحده بالعبادة و أساس العبادة الطاعة، أي أن على المسلم أن يؤمن أن الله يحكم ما يريد و أن على العبد السمع و الطاعة و لذا فإن من أنكر على الله حقه في أن يشرع لخلقه فقد خرج من ملة الإسلام وإن كان مصليا و مزكيا.

(السورة: المائدة / الآية: 2)

{يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب}

تفسير

قوله تعالى: "لا تحلوا شعائر الله": قال ابن عباس و مجاهد: هي مناسك الحج, وكان المشركون يحجون ويهدون, فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

وقال أبو عبيدة: شعائر الله هي الهدايا المشعرة, والإشعار من الشعار, وهي العلامة, وإشعارها: إعلامها بما يُعرف أنها هدي, والإشعار هاهنا: أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل الدم, فيكون ذلك علامة أنها هدي, وهي سنة في الهدايا إذا كانت من الإبل, لما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فتلت قلائد بدن النبي صلى الله عليه وسلم بيدي, ثم قلدها وأشعرها وأهداها, فما حَرُمَ عليه شيء كان أُحِلّ له.

وقاس الشافعي البقر على الإبل في الإشعار, وأما الغنم فلا تشعر بالجرح, فإنها لا تحتمل الجرح لضعفها, وعند أبي حنيفة: لا يشعر الهدي.

وقال عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما: لا تحلوا شعائر الله هي أن تصيد وأنت محرم, بدليل قوله تعالى: "وإذا حللتم فاصطادوا"

وقال السدي: أراد حرم الله

وقيل: المراد منه النهي عن القتل في الحرم

وقال عطاء: شعائر الله حرمات الله واجتناب سخطه واتباع طاعته.

قوله تعالى: "وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ" أي: بالقتال فيه, وقال ابن زيد: هو النسيء, وذلك أنهم كانوا يحلونه في الجاهلية عاما ويحرمونه عاما, "وَلا الْهَدْيَ" وهو كل ما يهدى إلى بيت الله من بعير أو بقرة أو شاة, "وَلا الْقَلائِدَ" أي: الهدايا المقلدة, يريد ذوات القلائد, وقال عطاء: أراد أصحاب القلائد, وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أرادوا الخروج من الحرم قلدوا أنفسهم وإبلهم بشيء من لحاء شجر الحرم كيلا يتعرض لهم, فنهى الشرع عن استحلال شيء منها. وقال مطرف بن الشخير: هي القلائد نفسها وذلك أن المشركين كانوا يأخذون من لحاء شجر مكة ويتقلدونها فنهوا عن نزع شجرها.

قوله تعالى: "وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ" أي: قاصدين البيت الحرام, يعني: الكعبة فلا تتعرضوا لهم.

قوله عز وجل: "وَإِذَا حَلَلْتُمْ" من إحرامكم, "فَاصْطَادُوا" أمر إباحة, أباح للحلال أخذ الصيد, كقوله تعالى: فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ (الجمعة, 10).

"وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ" قال ابن عباس وقتادة: لا يحملنكم, يقال: جرمني فلان على أن صنعت كذا, أي حملني, وقال الفراء: لا يكسبنكم, يقال: جرم أي: كسب, وفلان جريمة أهله, أي: كاسبهم, وقيل: لا يدعونكم, "شَنَآنُ قَوْم" أي: بغضهم وعداوتهم, وهو مصدر شنئت, "أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" أي: لأن صدوكم, ومعنى الآية: ولا يحملنكم عداوة قوم على الاعتداء لأنهم صدوكم. وقال محمد بن جرير: لأن هذه السورة نزلت بعد قضية الحديبية, وكان الصد قد تقدم, "أَنْ تَعْتَدُوا" عليهم بالقتل وأخذ الأموال, "وَتَعَاوَنُوا" أي: ليعين بعضكم بعضا, "عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى" قيل: البر متابعة الأمر, والتقوى مجانبة النهي, وقيل: البر: الإسلام, والتقوى: السنة, "وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" قيل: الإثم: الكفر, والعدوان: الظلم, وقيل: الإثم: المعصية, والعدوان: البدعة. عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم, قال: "البر حسن الخلق, والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

أسباب النزول

قوله تعالى:"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ" نزلت في الحطم واسمه شريح بن ضبيعة البكري, أتى المدينة وخلّف خيله خارج المدينة, ودخل وحده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: إلى ما تدعو الناس؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة, فقال: حسن إلا أن لي أمراء لا أقطع أمرا دونهم, ولعلي أسلم وآتي بهم, وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: يدخل عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان, ثم خرج شريح من عنده, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر وما الرجل بمسلم, فمر بسرح المدينة فاستاقه وانطلق, فاتبعوه فلم يُدركوه, فلما كان العام القابل خرج حاجا في حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة, وقد قلد الهدي, فقال المسلمون للنبي صلى الله عليه وسلم: هذا الحطم قد خرج حاجا فخلِّ بيننا وبينه, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه قد قلد الهدي, فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية, فأبى النبي صلى الله عليه وسلم, فأنزل الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ".

قال ابن عباس و مجاهد: هي مناسك الحج, وكان المشركون يحجون ويهدون, فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك.

تأملات

اختتمت هذه الآية بقاعدة أصيلة من قواعد الفقه: "وتعاونوا على البر و التقوى و لا تعاونوا على الإثم و العدوان"، وهي قاعدة عامة تدخل في جميع أمور الحياة فتضبط حركة المسلم فإن وجد برا و تقوى مد يد العون و إن و جد إثما و عدوانا امتنع، و لذا فعلى المسلم دائما أن يقيم موقفه في أي عمل يعمله: هل هو بهذا العمل يعين على البر أم على الإثم، فإن علم أنه إثم فلا يختلق الأعذار قائلا إنما أنا جندي صغير أو موظف ضعيف أو أنه وجد الناس يفعلون ففعل أو ...و هذا ما علمنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن لا تظلموا".

و يظهر هذا الأمر واضحا في كثير من الوظائف في شركات و مؤسسات و هيئات في أيامنا هذه حيث يطلب من الموظف أو العامل أو الجندي أن يقوم بأعمال منها ما هو بر و منها ما هو إثم فعليه أن يمتنع إن طلب منه "الإعانة على الإثم" و ألا يقول إنه عملي و مصدر رزقي، فحري به أن يطهر مصدر رزقه من الكسب الحرام و الله تعالى يعوضه و يأجره إن شاء.

و من الأمور الدقيقة في هذا المجال أن الإنسان أحيانا يطلب منه أن يختار بين أمرين أو أكثر يراهم كلهم خير أو فيهم من الخير، أو أن يختار بين أمور يراها كلها شر أو فيها من الشر و لا بد له من أن يختار واحدة من هذه الأمور ليعين أهلها عليها، فعليه أن يستعن بالله و يستخيره و يستشير أهل الخبرة و العلم "أي الخيرين خير و أي الشرين شر" فالعاقل من عرف فخير الخيرين و شر الشرين و هذا من توفيق الله تعالى لعبده.

(السورة: المائدة / الآية: 3)

{حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم}

الحديث و السنة

في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال أي آيه؟ قال: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"، قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة.

قال صلى الله عليه وسلم: "يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهي أيام أكل وشرب"

وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: "نزلت –أي آية (اليوم أكملت)- في يوم الجمعة ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد".

(السورة: المائدة / الآية: 94)

{يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم}

أسباب النزول

نزلت عام الحديبية وكانوا محرمين ابتلاهم الله بالصيد, وكانت الوحوش تغشى رحالهم من كثرتها فهمّوا بأخذها فنزلت: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ) ليختبرنكم الله, وفائدة البلوى إظهار المطيع من العاصي, وإلا فلا حاجة له إلى البلوى بشيء من الصيد, وإنما بَعَّض, فقال (بِشَيْءٍ) لأنه ابتلاهم بصيد البر خاصة. (تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ) يعني: الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفر من صغار الصيد, (وَرِمَاحُكُمْ) يعني: الكبار من الصيد, (لِيَعْلَمَ اللَّهُ) ليرى الله, لأنه قد علمه, (مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) أي: يخاف الله ولم يره, كقوله تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (الأنبياء, 49) أي: يخافه فلا يصطاد في حال الإحرام.

(السورة: المائدة / الآية: 95)

{يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام}

قوله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) أي: محرمون بالحج والعمرة, وهو جمع حرام, يقال: رجل حرام وامرأة حرام, وقد يكون من دخول الحرم, يقال: أحرم الرجل إذا عقد الإحرام, وأحرم إذا دخل الحرم. نزلت في رجل يقال له أبو اليَسَر شدَّ على حمار وحش وهو محرم فقتله.

فقه

قوله عز وجل: (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) معناه أنه يجب عليه مثل ذلك الصيد من النعم, وأراد به ما يقرب من الصيد المقتول شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة، (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) أي: يحكم بالجزاء رجلان عدلان, وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى أشبه الأشياء من النعم فيحكمان به, وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس, وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم, حكموا في بلدان مختلفة وأزمان شتى بالمثل من النعم, يحكم حاكم في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة, وفي حمار الوحش ببقرة وهي لا تساوي بقرة وفي الضبع بكبش وهي لا تساوي كبشا, فدل على أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبها من حيث الخلقة لا من حيث القيمة وتجب في الحمام شاة, وهو كل ما عب وهدر من الطير, كالفاختة والقمري.

ورُوي عن عمر وعثمان وابن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكة بشاة, و أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قضى في الضبع بكبش, وفي الغزال بعنز وفي الأرنب بعناق, وفي اليربوع بجفرة.

قوله تعالى: (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) أي: يُهدي تلك الكفارة إلى الكعبة, فيذبحها بمكة ويتصدق بلحمها على مساكين الحرم, (أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا) قال الفراء رحمه الله: العِدْل بالكسر: المثل من جنسه, والعَدْل بالفتح: المثل من غير جنسه, وأراد به: أنه في جزاء الصيد مخيّر بين أن يذبح المثل من النعم, فيتصدق بلحمه على مساكين الحرم, وبين أن يقوّم المثل دراهم, والدراهم طعاما, فيتصدق بالطعام على مساكين الحرم, أو يصوم عن كل مدٍّ من الطعام يوما وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين.

وقال مالك: إن لم يخرج المثل يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاما فيتصدق به, أو يصوم.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يجب المثل من النعم, بل يقوّم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم, وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به, وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوما.

وقال الشعبي والنخعي جزاء الصيد على الترتيب والآية حجة لمن ذهب إلى التخيير.

واختلفوا في المحرم هل يجوز له أكل لحم الصيد أو لا؟ فذهب قوم إلى أنه لا يحل له بحال, ويروى ذلك عن ابن عباس, وهو قول طاووس وبه قال سفيان الثوري, واحتجوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وحشيا, وهو بالأبواء أو بودّان, فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم, قال: فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وجهي, قال: "إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم" .

وذهب الأكثرون إلى أنه يجوز للمحرم أكله إذا لم يصطد بنفسه ولا اصطيد لأجله أو بإشارته, وهو قول عمر وعثمان وأبي هريرة, وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير, وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي, وإنما رد النبي صلى الله عليه وسلم على الصعب بن جثامة لأنه ظن أنه صيد من أجله.

والدليل على جوازه ما جاء عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان ببعض طريق مكة, تخلف مع أصحاب له محرمين وهو غير محرم فرأى حمارا وحشيا فاستوى على فرسه وسأل أصحابه أن يناولوه سوطه فأبوا فسألهم رمحه فأبوا فأخذه ثم شدّ على الحمار فقتله, فأكل منه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, وأبى بعضهم فلما أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه عن ذلك, فقال: "إنما هي طعمة أطعمكموها الله تعالى" .

(السورة: المائدة / الآية: 96)

{أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون}

تفسير

قوله عز وجل: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) والمراد بالبحر جميع المياه (المالحة و العذبة)، و للعلماء أقوال في معنى "صيد البحر" و "طعام البحر":

1-قال عمر رضي الله عنه: "صيده ما اصطيد وطعامه ما رمي به".
2-وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتا.
3-وقال مجاهد: صيده: طريه, وطعامه: مالحه

متاعا لكم أي: منفعة لكم أو منفعة لمن كان منكم مقيما أو حاضرا في بلده, وللسيارة جمع سيار يعني: للمارة أو للسائرين المسافرين من أرض إلى أرض.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أحلت لنا ميتتان ودمان: الميتتان الحوت والجراد, والدمان: الكبد والطحال" ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب, وعند أبي حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو انحسار الماء عنه ونحو ذلك.

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنا نركب في البحر ونحمل

معنا القليل من الماء, فإن توضأنا به عطشنا, أفتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

و عن جابر رضي الله عنه قال: غزوت جيش الخَبَط وأُمِّر أبو عبيدة, فجعنا جوعا شديدا فألقى البحر حوتا ميتا لم نر مثله, يقال له العنبر, فأكلنا منه نصف شهر, فأخذ أبو عبيدة عظما من عظامه, فمر الراكب تحته. وأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول: قال أبو عبيدة: كلوا فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم, فقال: "كلوا رزقا أخرجه الله إليكم, أطعمونا إن كان معكم" فأتاه بعضهم بشيء منه فأكلوه.

قوله تعالى: (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) صيد البحر حلال للمحرم, كما هو حلال لغير المحرم, أما صيد البر فحرام على المحرم وفي الحرم, والصيد هو الحيوان الوحشي الذي يحل أكله, أما ما لا يحل أكله فلا يحرم بسبب الإحرام, وللمحرم أخذه وقتله, ولا جزاء على من قتله إلا المتولد بين ما لا يؤكل لحمه وما يؤكل, كالمتولد بين الذئب والظبي لا يحل أكله ويجب بقتله الجزاء على المحرم, لأن فيه جزاء من الصيد.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور"، وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يقتل المحرم السبع العادي"، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خمس قتلهن حلال في الحرم: الحية والعقرب والحدأة والفأرة والكلب العقور". وقال سفيان بن عيينة: الكلب العقور كل سبع يعقر.

(السورة: المائدة / الآية: 97)

{ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم}

قوله تعالى: (قِيَامًا لِلنَّاسِ) أي: قواما لهم في أمر دينهم ودنياهم, أما الدين لأن به يقوم الحج والمناسك, وأما الدنيا فيما يجبي إليه من الثمرات, وكانوا يأمنون فيه من النهاب والغارة فلا يتعرض لهم أحد في الحرم, قال الله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (العنكبوت-67) (وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) أراد به الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب, أراد أنه جعل الأشهر الحرم قياما للناس يأمنون فيها القتال, (وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ) أراد أنهم كانوا يأمنون بتقليد الهدي, فذلك القوام فيه.

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فإن قيل: أي اتصال لهذا الكلام بما قبله؟ قيل: أراد أن الله عز وجل جعل الكعبة قياما للناس لأنه يعلم صلاح العباد كما يعلم ما في السموات وما في الأرض, وقال الزجاج: قد سبق في هذه السورة الإخبار عن الغيوب والكشف عن الأسرار, مثل قوله سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ , ومثل إخباره بتحريفهم الكتب ونحو ذلك, فقوله (ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) راجع إليه.

اللغة

قال مجاهد: سميت كعبة لتربيعها, والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة, قال مقاتل: سميت كعبة لانفرادها من البناء, وقيل: سميت كعبة لارتفاعها من الأرض, وأصلها من الخروج والارتفاع, وسمي الكعب كعبا لنتوئه, وخروجه من جانبي القدم.

(السورة: الأنعام / الآية: 162)

{قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين}

تأملات

إن هذه الآية البينة لهي نبراس يضيئ حياة المسلم، لا يصح إسلام العبد إلا إذا ضبط إيقاع حياته معها، فهي تبين بوضوح شمول الإسلام لكل شيء في الحياة، فتبدأ بالصلاة وهي أعظم العبادات في إشارة إلى كل العبادات البدنية، فيشترط لقبولها أن تكون لله خالصة لا رياء فيها و ألا يشرك بها مع الله أحد ثم تذكر النسك و هو الحج أو الذبح فلا يكون إلا لله و في هذا إشارة إلى كل بذل و عطاء و جهد، ثم تتبع هتان العبادتان العظيمتان - اللتان يعلم كل مسلم أنهما ينغي أن تكونان خالصتان لله تعالى - بالمحيا و الممات ليشمل بذلك كل شيء في حياة المسلم بل و مماته (بأن يموت على الإيمان و أن يستعد للقاء ربه بعد الممات).

ينبغي على كل مسلم أن يفهم هذه الآية من عدة وجوه:

1-أن شريعة الإسلام شريعة شاملة تنظم جميع جوانب الحياة.

2-أن الإسلام لا ينحصر في الشعائر التعبدية و لكنه يمتد إلى السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و المعاملات.

3-إن القول بأن الإسلام ينحصر في داخل المسجد أو في كلمة وعظ أو في رحلة حج أو عمرة ولا شأن له بحياة الناس هو قول كفر و إنكار لهذه الآية و آيات أخرى مثل: "أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض".

4-أن المسلم ينبغي أن يعيش للإسلام و أن يكون الإسلام صلب حياته و محورها و غايتها، فإذا سئل المسلم ما هي غايتك يرد بلا تردد: غايتي رضا الله، ورضا الله يوجب جنته، و على هذه الغاية تنبني حياته و منها تتفرع أعماله، فلا نراه قد اكتفى من دينه بالصلاة وكانت حياته لشهواته، بل نراه قد قسم أوقاته بين أعمال الخير و البر و نصرة الإسلام و الدعوة إلى الله بقدر طاقاته و إمكاناته، فنرى حياته بحق "لله رب العالمين".

(السورة: الأعراف / الآية: 172)

{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}

الحديث و السنة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بِنَعْمان- يعني عرفة- وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذّر، ثم كلمهم قِبَلا، قال: (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) "رواه أحمد وصححه الألباني"

(السورة: الأنفال / الآية: 34)

{وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون}

تأملات

تخبرنا هذه الآية عن صفات "أولياء البيت" أي من يستحقون أن تكون الكعبة منهم و هم منها و هم الذين يطهرونها من الشرك و تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى فقد كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام, فرد الله عليهم بقوله: "وما كانوا أولياءه" أي: أولياء البيت, (إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ) أي: ليس أولياء البيت, (إِلا الْمُتَّقُونَ) يعني: المؤمنين الذين يتقون الشرك, (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ).

فقد ظن المشركون أنهم أولياء البيت لما يظهر للناس من بسط سيطرتهم عليه و وضع أصنامهم حوله و تحكمهم في الحج و السقاية، ولكن الله تعالى بين المعيار الحقيقي و هو التقوى، وكذلك كل من يزيف الحقيقة فيظن أن الحق معه لعلو صوته أو لامتلاكه قنوات فضائية أو صحف أو لأنه يطلق على نفسه اسم مفكر أو مثقف فالحق ليس له إلا معيار واحد: الحق ما وافق الكتاب و السنة، ولذا فإن على المسلم أن يقيم الأفكار و المواقف لا أن يقيم الأسماء و الأضواء.

(السورة: الأنفال / الآية: 35)

{وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون}

تفسير

قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير, وهو في اللغة اسم طائر أبيض, يكون بالحجاز له صفير, كأنه قال: إلا صوت مكاء, والتصدية التصفيق.

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون .

قال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف, ويستهزئون به, ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون. فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق. والتصدية الصفير, ومنه الصدى الذي يسمعه المصوت في الجبل.

قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله عز وجل "إلا مكاء وتصدية" فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرا .

قال مقاتل: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن شماله فيصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته, وهم من بني عبد الدار .

قال سعيد بن جبير: التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام , وعن الدين, والصلاة. وهي على هذا التأويل: التصددة بدالين, فقلبت إحدى الدالين ياء, كما يقال تظنيت من الظن, وتقضى البازي إذا البازي كسر, أي تقضض البازي. قال ابن الأنباري: إنما سماه صلاة لأنهم أمروا بالصلاة في المسجد فجعلوا ذلك صلاتهم.

(السورة: التوبة / الآية: 3)

{وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم}

قوله عز وجل: (وَأَذَان) عطف على قوله: "براءة" أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة, يقال: آذنته فأذن, أي: أعلمته. وأصله من الأذن, أي: أوقعته في أذنه.

قوله تعالى: (مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ) واختلفوا في يوم الحج الأكبر: روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عرفة, وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب.

وقال جماعة: هو يوم النحر, روي عن يحيى بن الجزار قال: خرج علي رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء, يريد الجبانة, فجاءه رجل وأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: يومك هذا, خل سبيلها. ويروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة. وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي.

وروى ابن جريج عن مجاهد: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها, وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيام منى كلها, مثل: يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعاث, يراد به: الحين والزمان, لأن هذه الحروب دامت أياما كثيرة .

وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: يوم الحج الأكبر اليوم الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو قول ابن سيرين, لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين, ولم يجتمع قبله ولا بعده.

واختلفوا في الحج الأكبر: فقال مجاهد: الحج الأكبر: القِران, والحج الأصغر: إفراد الحج.

وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر: الحج, والحج الأصغر: العمرة؛ قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها.

قوله تعالى: (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) أي: ورسوله أيضا بريء من المشركين. وقرأ يعقوب "ورسوله" بنصب اللام أي: أن الله ورسوله برئ, (فَإِنْ تُبْتُمْ) رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد, (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أعرضتم عن الإيمان, (فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

الحديث و السنة

لما كان سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج, ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة (و كان من المشركين من يطوف عريانا لأن قريش في الجاهلية كانت تشترط على الحجيج أن يطوفوا بملابس يشترونها منهم وإلا فمن لم يكن معه المال فليطف عريانا), فبعث أبا بكر تلك السنة أميرا على الموسم ليقيم للناس الحج, وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم, ثم بعث بعده عليا على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة, وأمره أن يؤذّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد بَرِئَتْ ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك, ولا يطوف بالبيت عريان.

فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنـزل في شأني شيء؟ قال: لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلِّغ هذا إلا رجل من

أهلي, أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله.

فسار أبو بكر رضي الله عنه أميرا على الحج, وعلي رضي الله عنه ليؤذِّن ببراءة, فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحَدَّثهم عن مناسكهم, وأقام للناس الحج, والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج, حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه, فأذَّن في الناس بالذي أمر به, وقرأ عليهم سورة براءة .

وقال زيد بن يُثَيْع سألنا عليًا بأي شيء بعثت في تلك الحجة؟ قال: بعثت بأربع: لا يطوف بالبيت عريان, ومَنْ كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته, ومَنْ لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر, ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة, ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا.

ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع.

و عن هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى: ألا لا يحج بعد العام مشرك, ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فأمره أن يؤذِّن ببراءة. قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: ألا لا يحج بعد العام مشرك, ولا يطوف بالبيت عريان .

(السورة: التوبة / الآية: 4)

{إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين}

تفسير

قوله تعالى: (إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) هذا استثناء من قوله: بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلا مِنْ عَهْد الذين عاهدتم من المشركين, وهم بنو ضمرة, حي من كنانة, أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم, وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر, وكان السبب فيه: أنهم لم ينقضوا العهد, وهذا معنى قوله تعالى: (ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا) من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه, (وَلَمْ يُظَاهِرُوا) لم يعاونوا, (عَلَيْكُمْ أَحَدًا) من عدوكم. وقرأ عطاء بن يسار: "لم ينقضوكم" بالضاد المعجمة من نقض العهد, (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ) فأوفوا لهم بعهدهم, (إِلَى مُدَّتِهِمْ) إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه, (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

(السورة: التوبة / الآية: 7)

{كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين}

قوله تعالى: (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ) هذا على وجه التعجب, ومعناه جحد, أي: لا يكون لهم عهد عند الله, ولا عند رسوله, وهم يغدرون وينقضون العهد, ثم استثنى فقال جلَّ وعلا (إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) قال ابن عباس: هم قريش. وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية.

قال الله تعالى: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ) أي: على العهد, (فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) فلم يستقيموا, ونقضوا العهد, وأعانوا بني بكر على خزاعة, فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم: إما أن يُسلموا, وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاءوا , فأسلموا قبل الأربعة الأشهر.

قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خزيمة وبنو مُدْلج وبنو ضُمْرة وبنو الدِّيل, وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية, ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر, فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة.

وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأن هذه الآيات نـزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة, فكيف يقول لشيء قد مضى: "فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم"؟ وإنما هم الذين قال عز وجل: إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا كما نقصتكم قريش, ولم يظاهروا عليكم أحدًا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم. (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

(السورة: التوبة / الآية: 17)

{ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون}

أوجب على المسلمين منعهم من ذلك؛ لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده, فمن كان كافرا بالله فليس من شأنه أن يعمرها. فذهب جماعة إلى أن المراد منه: العمارة المعروفة من بناء المساجد ومُرَمَّته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا تمتثل. وحمل بعضهم العمارة هاهنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة: "مسجد الله" على التوحيد, وأراد به المسجد الحرام, لقوله تعالى: وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ , ولقوله تعالى فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ , وقرأ الآخرون: (مَسَاجِدَ اللهِ) بالجمع والمراد منه أيضا المسجد الحرام. قال الحسن: إنما قال مساجد لأنه قبلة المساجد كلها. قال الفراء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد, ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين؟ ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار, يريد الدراهم والدنانير؟.

قوله تعالى: (شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) أراد: وهم شاهدون, فلما طرحت "وهم" نصبت, قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار, ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام, وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد, وكانوا يطوفون بالبيت عراة, كلما طافوا شوطا سجدوا لأصنامهم, ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعْدا.

قال الله تعالى: (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) لأنها لغير الله عز وجل, (وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) .

أسباب النزول

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم, وأغلظ علي رضي الله عنه له القول. فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟.

فقال له علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج, فأنـزل الله عز وجل ردا على العباس: "ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله" أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله.

(السورة: التوبة / الآية: 18)

{إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين}

تأملات

في هذه الآية العظيمة يصف الله تعالى من يعمر المساجد بأنه "يؤمن بالله و اليوم الآخر" و يبين الله تعالى أن من صفات عمار المساجد أنهم لايخشون إلا الله، و تختتم هذه الآية ببيان أن المساجد هي طريق الهداية، وذلك باستخدام كلمة "عسى"، وكل عسى في القرآن واجبة فهي من الله.

العمارة هنا إما التشييد و البناء و الترميم و الصيانة و الخدمة، وإما العمارة بالصلاة و الذكر و العلم و التربية، فكلا الأمرين مشهود له من الله بالإيمان و اتباع طريق الهداية.

ولنا مع هذا المعنى وقفة: ينبغي على كل مسلم أن يخشى على نفسه النفاق و أن يسعى دائما ليحصل على ما يرجو به أن يدخل في دائرة الإيمان و أن يخرج من دائرة النفاق، وحقيقة هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، و يظهر هذا الأمر واضحا في فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دُعي لجنازة فخرج فيها أو يريدها، فتعلّق حذيفة رضي الله عنه به فقال: اجلس يا أمير المؤمنين، فإنّه من أولئك ـ أي: من المنافقين ـ (وقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أخبره بهم)، فقال: نشدتك الله، أنا منهم؟ قال: لا، و لا أبرئ أحدا بعدك. فقد خشي عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نفسه أن يكون من أهل النفاق! و عن الحسن رضي الله عنه: "ما خافه ـ أي: النفاق ـ إلا مؤمن و لا أمنه إلا منافق"، وغير ذلك من أقوال الصحابة و التابعين في الخوف من النفاق.

ووقفة أخرى مع الهداية (فعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ): الهداية من الله يحتاج إليها الإنسان في كل نفس يتنفسه و في كل كلمة ينطق بها و في كل عمل يعمله و في كل حركة يتحركها، فيسأل المسلم ربه ذلك في كل ركعة يركعها "اهدنا الصراط المستقيم"، فغاية المسلم أن يوفقه الله إلى طريق الهداية و يبقيه فيه و يتوفاه عليه.

هذه هي الحالة القلبية للمؤمن: دائم المراقبة..دائم الخوف من النفاق..دائم الطلب للهداية، فتأتي هذه الآية لتمنح المسلم عملا يتلمس فيه النجاة من النفاق و الاقتراب من الإيمان و السير في طريق الهداية بأن يعمر مساجد الله، فيواظب على الصلوات الخمس فيها و يحضر دروس العلم و...ومع ذلك فإنك لا تزال ترى من يجادل قائلا: هل صلاة الجماعة في المسجد فرض أم سُنة!

(السورة: التوبة / الآية: 19)

{ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين}

أسباب النزول

عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أسقي الحاج. وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام. وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما, فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه, وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم, وهو يوم الجمعة, ولكن إذا صليتُ دخلت، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه, ففعل فأنـزل الله عز وجل: "أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام", إلى قوله: "والله لا يهدي القوم الظالمين" .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أُسِر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد, لقد كنا نعمر المسجد الحرام, ونسقي الحاج, فأنـزل الله تعالى هذه الآية, وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله, والإيمان بالله، والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم خيرٌ مما هم عليه .

وقال الحسن, والشعبي, ومحمد بن كعب القرظي, نـزلت في علي بن أبي طالب, والعباس بن عبد المطلب, وطلحة بن شيبة, افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه, وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها, وقال علي, ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنـزل الله عز وجل هذه الآية: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ) .

(السورة: التوبة / الآية: 20)

{الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون}

تأملات

كثيرا ما نرى هذه المقارنة في حياتنا اليومية: مقارنة بين عمل سهل يسير مألوف لكنه ظاهر للناس يثنون على صاحبه، فيظن أنه قد أصاب جوهر الدين و أساسه، و عمل آخر يحتاج إلى إيمان عميق و تضحية كبيرة، فنرى الكثير من الناس يميل إلى العمل الأول ويدأب في إقناع نفسه و الناس من حوله أن هذا هو العمل الأفضل، فيرشدنا الله تعالى في هذه الآية و التي قبلها إلى الاهتمام بمعرفة العمل الأفضل وعدم الانسياق وراء ما يراه الناس، وأن العمل الذي تتحقق فيه نصرة أكبر للإسلام يفضل غيره، فمن كان من المؤمنين الأوائل مع النبي صلى الله عليه و سلم له فضل على من آمن بعده، و من هاجر أفضل ممن لم يهاجر، ومن جاهد في سبيل الله أفضل ممن سقى الحجيج.

اهتم أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم بالبحث عن الأفضل دائما، فكان من أسئلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم:
"أي العمل أفضل؟"
"من أحق الناس بحسن صحابتي؟"
"أي الصدقة أعظم أجرا؟"
"يا رسول الله أي الدعاء أسمع؟"
"أي الجهاد أفضل؟"
...

فكما يقال دائما: ليس العاقل من علم الخير من الشر، ولكن العاقل من علم خير الخيرين و شر الشرين.

(السورة: التوبة / الآية: 28)

{يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم}

تفسير

قوله تعالى: (فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام, وأراد به الحرم وهذا كما قال الله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (الإسراء -1), وأراد به الحرم لأنه أسري به من بيت أم هانئ.

قوله: (بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) يعني: العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله عنه بالناس, ونادى علي كرَّم الله وجهه ببراءة, وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون, فلما مُنِعوا من دخول الحرم خافوا الفقر, وضيق العيش, وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنـزل الله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) فقرًا وفاقة. يقال: عال يعيل عَيْلة, (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال عكرمة: فأغناهم الله عز وجل بأن أنـزل عليهم المطر مدرارا فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

تأملات

يربي الله سبحانه المسلمين على التسليم التام له و الإيمان المطلق بقدرته و التوكل عليه و طاعة أمره سواء فهموا الحكمة منه أم لم يفهموا، حتى وإن كان ظاهر الأمر فيه شدة أو فيه خسارة أو تضييق، فمن وطن نفسه على هذا فقد حقق العبودية لله.

إن الله تعالى قد أمر المسلمين بمنع المشركين من دخول الحرم بعد عامهم، وظاهر الأمر أن المشركين لن يأتوا بتجارتهم وهذا يؤدي إلى فقرهم و ضيق عيشهم، و لكن الله تعالى أعلم بهم و أعلم بما في قلوبهم، فطمأنهم أن الله تعالى سوف يغنيهم من فضله إن شاء، وانظر إلى ختام الآية: "إن الله عليم حكيم" عليم بحالهم واحتياجهم إلى هذه التجارة، وعليم بقلوبهم و ما يدور فيها من مخاوف، و عليم بما يصلح الدين و الدنيا، حكيم فيما يأمرهم به من أوامر وإن لم يعلموا الحكمة وقت نزول الحكم.

هكذا ينبغي أن يكون المسلم، مقدما أمر الله على رؤيته و نظرته القاصرة، فيستقبل الأمر بالسمع و الطاعة رجاء رضا الله و خشية عذابه، ثم يعلم أن الله تعالى لن يضيعه، واضعا نصب عينيه قول الحق تبارك و تعالى: "و من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب".

اللغة

قال الضحاك وأبو عبيدة: نَجِس: قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع, فأما النّجْس: بكسر النون وسكون الجيم, فلا يقال على الانفراد, إنما يقال: رِجْسٌ نِجْسٌ, فإذا أفرد قيل: نَجِس, بفتح النون وكسر الجيم, وأراد به: نجاسة الحكم لا نجاسة العين, سُمّوا نَجَسًا على الذم.

(السورة: ابراهيم / الآية: 35)

{وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}

تفسير

قوله عز وجل: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ) يعني: الحرم, (آمِنًا) ذا أمن يؤمن فيه, (وَاجْنُبْنِي) أبعِدْني, (وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) يقال: جَنَبْتُه الشيء, وأجْنَبْتُه جنبًا, وجَنَّبْتُهُ تَجْنِيْبًا واجتَنَبْتُهُ اجتنابًا بمعنى واحد.

فإن قيل: قد كان إبراهيم عليه السلام معصومًا من عبادة الأصنام, فكيف يستقيم السؤال؟ وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة؟

قيل: الدعاء في حقِّ إبراهيم عليه السلام لزيادة العصمة والتثبيت, وأما دعاؤه لبنيه: فأراد بنيه من صُلْبه, ولم يعبد منهم أحدٌ الصنم.

وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمنًا من بنيه.

تأملات

إن الله تعالى علم الأنبياء دعوات لنتعلم منهم و لننظر إلى عظيم شأنهم مع سؤالهم الله أن يبعدهم عن الشرك و أن يثبتهم فقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه و سلم: "اللهم يا مقلب القلوب و الأبصار ثبت قلبي على دينك"، فنحن أحرى بذلك.

ينبغي على المسلم أن يخشى الانتكاس و التقلب من الإيمان إلى الكفر و ألا يتكل في ذلك على نفسه أو إيمانه أو علمه بل يلجأ إلى الله و يلح عليه في طلب الثبات و حسن الخاتمة، وقد رأينا قديما و حديثا من يحفظ القرآن ثم ينتكس و يصبح حربا على الإسلام، و من يصبح مؤمنا و يمسي كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا، و من يغتر بعبادته و يمن بها على الله في يختم له بالسوء، نسأل الله أن يثبتنا و أن يحسن خاتمتنا.

(السورة: ابراهيم / الآية: 37)

{ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون}

تفسير

قوله عز وجل: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي) أدخل "من" للتبعيض, ومجاز الآية: أسكنت من ذريتي ولدًا, (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين, (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) سماه محرَّما لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره.

قال ابن عباس: أول ما اتَّخذ النساءُ المِنْطَقَ من قِبَلِ أمِّ إسماعيلَ, اتخذت مِنْطَقًا لتُعَفِّي أثرها على سارة, ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام, وبابنها إسماعيل, وهي ترضعه, حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد, وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء, فوضعهما هنالك, ووضع عندهما جرابًا فيه تمر, وسقاءً فيه ماء, ثم قفَّل إبراهيم منطلقًا, فتبعتْه أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنْس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا, وجعل لا يلتفت إليها, فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم, قالت: إذن لا يضيّعنا ثم رجعت, فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت, ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه, فقال: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) حتى بلغ "يشكرون".

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عطشتْ وعطش ابنها, وجعلت تنظر إليه يتلبَّط أو قال يتلوَّى, وانطلقت كراهية أن تنظر إليه, فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها, فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا, فلم تر أحدًا, فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعِها, ثم سَعَتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي, ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا, فلم تر أحدًا, ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فلذلك سَعْيُ الناس بينهما".

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه -تريد نفسها-ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِوَاث, فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم, فبحث بعقبه -أو قال بجناحه-حتى ظهر الماء فجعلت تَحُوضُه وتقول بيدها هكذا, وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم" أو قال: "لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا مَعِينًا".

قال: فشربتْ وأرضعت ولدها, فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله, يبنيه هذا الغلام وأبوه, وإن الله لا يضيع أهله.

وكان موضع البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية, تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك, حتى مرَّت بهم رُفْقة من جُرْهُم -أو أهل بيت من جرهم-مقبلين من طريق كَداء, فنـزلوا في أسفل مكة, فرأوا طائرًا عائفًا, فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على ماء, ولَعَهْدنا بهذا الوادي وما فيه ماء, فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء, فرجعوا فأخبروهم بالماء, فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء, فقالوا: أتأذنين لنا أن ننـزل عندك؟ فقالت: نعم, ولكن لا حقَّ لكم في الماء, قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس, فنـزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنـزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم, وأنْفَسَهُم وأعجبهم حين شبَّ, فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم.

قوله تعالى: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ) الأفئدة: جمع الفؤاد (تَهْوِي إِلَيْهِمْ) تشتاق وتحنُّ إليهم.

قال السدي: معناه أمِلْ قلوبهم إلى هذا الموضع.

قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند.

وقال سعيد بن جبير: لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس, ولكنه قال: "أفئدة من الناس" وهم المسلمون.

(وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) ما رزقت سكان القرى ذوات الماء, (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

تأملات

تشتاق قلوب المسلمين في كل بقاع الأرض إلى بيت الله الحرام، فترى الشوق يدفع من لم يعتمر أو يحج إلى أن يدخر المال و يظل يحلم أعواما عديدة بزيارة الكعبة و مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإذا كانت أول عمرة أو حجة له ترى عينه تلمع من الفرح، فإذا وصل إلى الكعبة و رأى بهاءها ترى عينه تفيض بالدمع فرحا و يلهج لسانه بحمد الله أن أوصله إلى هذا البقعة المقدسة من الأرض، أما حال من حج أو اعتمر من قبل فلا يختلف كثيرا عن الأول فكلما تذكر الطواف و السعي و الصلاة في المسجد الحرام و النظر إلى الكعبة و ما عاشه من سمو روحي و إيمانيات غامرة يهوي قلبه إلى البيت العتيق فتراه يكرر العمرة و يكرر الحج جامعا في قلبه مع شوقه رغبته في ثواب الله الذي أعده للحاج و المعتمر كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه و سلم في أحاديث كثيرة منها: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"، "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"، "تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد". إن هذا الشوق من دعوة إبراهيم عليه السلام: "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم"، فاللهم ارزقنا حج بيتك سنين عديدة و أزمنة متتابعة.

(السورة: الحج / الآية: 25)

{إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم}

تفسير

قوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) عطف المستقبل على الماضي, لأن المراد من لفظ المستقبل الماضي, كما قال تعالى في موضع آخر: الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (النساء: 167) , معناه: إن الذين كفروا فيما تقدم, ويصدون عن سبيل الله في الحال, أي: وهم يصدون. (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أي: ويصدون عن المسجد الحرام.

(الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ) قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا كما قال: وُضِعَ لِلنَّاسِ (آل عمران: 96).

(سَوَاءً) مستويا فيه, (الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) العاكف: المقيم فيه, والبادي: الطارئ الذي أتى إليه من خارجه.

واختلفوا في معنى الآية:
1-سواء في تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه. وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة. وقالوا: المراد منه نفس المسجد الحرام.

2-التسوية في تعظيم الكعبة في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف بالبيت.

3-قال آخرون: المراد منه جميع الحرم, ومعنى التسوية: أن المقيم والبادي سواء في النـزول به, ليس أحدهما أحق بالمنـزل يكون فيه من الآخر, غير أنه لا يزعج فيه أحد إذا كان قد سبق إلى منـزل, وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد, قالوا: هما سواء في البيوت والمنازل.

4-وقال عبد الرحمن بن سابط: كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق بمنـزله منهم. وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم, وعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها, وعلى القول الأول -وهو الأقرب إلى الصواب -يجوز, لأن الله تعالى قال: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ (الحج: 40) , وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" فنسب الدار إليه نسب ملك, واشترى عمر دارا للسجن بمكة بأربعة آلاف درهم, فدل على جواز بيعها. وهذا قول طاوس وعمرو بن دينار, وبه قال الشافعي.

قوله عز وجل: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) أي: في المسجد الحرام بإلحاد بظلم وهو الميل إلى الظلم، واختلفوا في هذا الإلحاد:

1-فقال مجاهد وقتادة: هو الشرك وعبادة غير الله.

2-وقال قوم: هو كل شيء كان منهيا عنه من قول أو فعل.

3-وقال عطاء: هو دخول الحرم غير محرم, أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم, من قتل صيد, أو قطع شجر.

4-وقال ابن عباس: هو أن تقتل فيه من لا يقتلك, أو تظلم فيه من لا يظلمك, وهذا معنى قول الضحاك.

5-وعن مجاهد أنه قال: تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات.

6-وقال حبيب بن أبي ثابت: وهو احتكار الطعام بمكة.

7-وقال عبد الله بن مسعود في قوله: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) قال: لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه, ما لم يعملها, ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين, أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم. وقال السدي: إلا أن يتوب.

(السورة: الحج / الآية: 26)

{وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود}

تأملات

تظهر في هذه الآية العلاقة بين الكعبة و عقيدة التوحيد، فتلمح من أسلوب الآية "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا" الارتباط بين الاثنين، فأساس الغاية من بناء البيت أن يكون قبلة للموحدين و أن تكون العبادة لله وحده، وكل ما فيه من عبادات (الطواف و الاعتكاف و الصلاة و غيرها) تنبني على التوحيد و تعلن التوحيد و ترسخ عقيدة التوحيد، ولذلك توعدت الآية التي تسبقها كل من أراد الإلحاد في المسجد الحرام بالعذاب الأليم.

إن هذه العقيدة هي أغلى ما يملك المؤمن، وهي التي من أجلها خلق الكون و جعل الثواب والعقاب وهي ما ينبغي أن يدعو إليها المسلم وأن يكون همه نشرها و تصحيح ما ينحرف عند الناس منها و تقويتها في نفسه و نفوس إخوانه، فما أعظمها من نعمة و ما أغلاها من هبة و ما أثقلها من مهمة و ما أعلاها من غاية.

اللغة

بَوَّأْنَا: وطّأنا
قال ابن عباس: جعلنا
و قيل: بينا
قال الزجاج: جعلنا مكان البيت مبوءا لإبراهيم.
وقال مقاتل بن حيان: هيأنا

(السورة: الحج / الآية: 27)

{وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}

تفسير

أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ) أي: أعلم وناد في الناس - ومنها الأذان للصلاة أي الإعلام بدخول الوقت, (بِالْحَجِّ) فقال إبراهيم وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليكَ الأذان وعلي البلاغ, فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه, وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم, فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك.

وقد سار النبي صلى الله عليه و سلم على هذا الهدي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا".

قوله تعالى: (يَأْتُوكَ رِجَالا) مشاة على أرجلهم جمع راجل, مثل قائم وقيام وصائم وصيام, (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) أي: ركبانا على كل ضامر, والضامر: البعير الهزيلة من طول السفر و قلة الأكل. (يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) أي: من كل طريق بعيد.

(السورة: الحج / الآية: 28)

{ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير}

(لِيَشْهَدُوا) ليحضروا, (مَنَافِعَ لَهُمْ) قال سعيد بن المسيب, ومحمد بن علي الباقر: العفو والمغفرة. وقال سعيد بن جبير: التجارة, وهي رواية ابن زيد عن ابن عباس, قال: الأسواق. وقال مجاهد: التجارة وما يرضى الله به من أمر الدنيا والآخرة . (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين. قيل لها "معلومات" للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها. ويروى عن علي رضي الله عنه: أنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده, وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنها يوم عرفة والنحر وأيام التشريق. وقال مقاتل: المعلومات أيام التشريق . (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) يعني: الهدايا, والضحايا, تكون من النعم, وهي الإبل والبقر والغنم.

واختار الزجاج أن الأيام المعلومات: يوم النحر وأيام التشريق, لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدل على التسمية على نحرها, ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام. (فَكُلُوا مِنْهَا) أمر إباحة وليس بواجب, وإنما قال ذلك لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا, واتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع.

فقه

اتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع، فعن جابر بن عبد الله قال في قصة

حجة الوداع: "...وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة بيده ونحر علي ما بقي, ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تؤخذ بضعة من كل بدنة فتجعل في قدر, فأكلا من لحمها وحسيا من مرقها".

واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئا؟ مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج وفواته وجزاء الصيد؟

فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه شيئا, وبه قال الشافعي, وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر, وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذر, ويأكل مما سوى ذلك, وبه قال أحمد وإسحاق, وقال مالك: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور, وعند أصحاب الرأي يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما.

تأملات

الجانب الأخلاقي الاجتماعي التربوي يظهر واضحا في معظم (إن لم يكن كل) الشعائر التعبدية في الإسلام:
1-فنجد في الصلاة مثلا: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر" و نجد فيها تسوية الصفوف و الشعور بالأخوة و التعارف بين أبناء المسجد الواحد والاستماع إلى القرآن الذي يهذب النفس و الصلاة خلف إمام واحد مما يعلم المسلم النظام و احترام الجماعة و تقديم "أقرأ" الناس أي أكفأهم لهذه المهمة ثم الركوع و السجود الذي يطهر القلب من الكبر و يصبغ المسلم بصبغة العبودية لله

2-ونجد الصيام يهذب النفس فيمنعها عن شهواتها و يعلم المسلمين الوحدة فيمسكوا في وقت واحد و يفطروا في وقت واحد و يقوي الروابط بينهم في اجتماعهم على الإفطار و ينمي عند الغني الاحساس بالفقير الذي يجوع فلا يجد ما يسد جوعه.

3-و في هذه الآية طرف من المعاني الأخلاقية و الاجتماعية في الحج وهو "وأطعموا البائس الفقير"، و في الحج الكثير مما لا يخفى على أحد من الأمور التربوية من الصبر و الجهاد و الوحدة و التواضع و الطاعة و الأخوة و المساواة و ...

(السورة: الحج / الآية: 29)

{ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق}

تفسير

قوله تعالى (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) التفث: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظافر والشعث, تقول العرب لمن تستقذره: ما أتفثك: أي: ما أوسخك. والحاج أشعث أغبر, لم يحلق شعره ولم يقلم ظفره, فقضاء التفث: إزالة هذه الأشياء ليقضوا تفثهم, أي: ليزيلوا أدرانهم, والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق, وقص الشارب, ونتف الإبط, والاستحداد, وقلم الأظفار, ولبس الثياب. قال ابن عمر وابن عباس: "قضاء التفث": مناسك الحج كلها. وقال مجاهد: هو مناسك الحج, وأخذ الشارب, ونتف الإبط, وحلق العانة, وقلم الأظفار. وقيل: التفث هاهنا رمي الجمار.

قوله تعالى: (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) قال مجاهد: أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي: ليتموها بقضائها. وقيل: المراد منه الوفاء بما نذر على ظاهره. وقيل: أراد به الخروج. عما وجب عليه نذر أو لم ينذر. والعرب تقول لكل من خرج عن الواجب عليه وفى بنذره.

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أراد به الطواف الواجب عليه وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق.

قوله: (بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) اختلفوا في معنى "العتيق": قال ابن عباس, وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سمي عتيقا لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه, فلم يظهر عليه جبار قط. قال سفيان بن عيينة: سمي عتيقا لأنه لم يملك قط, وقال الحسن وابن زيد: سمي به لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس, يقال: دينار عتيق أي قديم, وقيل: سمي عتيقا لأن الله أعتقه من الغرق, فإنه رفع أيام الطوفان.

فقه

والطواف ثلاثة: طواف القدوم, وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي إربعا, وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه.

عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي أنه سأل عروة بن الزبير رضي الله عنه فقال: قد حج النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرتني عائشة أنه أول شيء بدأ به حين قدم أنه توضأ ثم طاف بالبيت ثم لم يكن عمرة, ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن عمرة, ثم عمر مثل ذلك, ثم حج عثمان فرأيته أول شيء بدأ به الطواف بالبيت.

عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم يسعى ثلاثة أطواف ويمشي أربعا, ثم يصلي سجدتين, ثم يطوف بين الصفا والمروة سبعا.

والطواف الثاني: هو طواف الإفاضة (وهو المقصود في هذه الآية) يوم النحر بعد الرمي والحلق, وهو واجب لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأت به.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: حاضت صفية ليلة النفر فقالت: ما أراني إلا حابستكم قال النبي صلى الله عليه وسلم "عقري حلقي أطافت يوم النحر؟ قيل: نعم, قال: فانفري" فثبت بهذا أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر.

والطواف الثالث: هو طواف الوداع لا رخصة فيه لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعا, فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض يجوز لها ترك طواف الوداع.

عن ابن عباس , قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض .

والرمل مختص بطواف القدوم, ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع.

(السورة: الحج / الآية: 30)

{ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور}

تفسير

(ذَلِكَ) أي: الأمر ذلك, يعني ما ذكر من أعمال الحج, (وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ) أي:

1- معاصي الله وما نهى عنه, وتعظيمها ترك ملابستها.
2- قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها.
3- وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه.
4- وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات هاهنا: المناسك, بدلالة ما يتصل بها من الآيات.
5- وقال ابن زيد: الحرمات هاهنا: البيت الحرام, والبلد الحرام والشهر الحرام, والمسجد الحرام, والإحرام.
(فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) أي: تعظيم الحرمات, خير له عند الله في الآخرة.

قوله عز وجل: (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ) أن تأكلوها إذا ذبحتموها وهي الإبل والبقر والغنم, (إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) تحريمه, وهو قوله في سورة المائدة:"حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ..."(المائدة: 3)

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) أي: عبادتها, يقول: كونوا على جانب منها فإنها رجس, أي: سبب الرجس, وهو العذاب, والرجس: بمعنى الرجز. وقال الزجاج: (من) هاهنا للتجنيس أي: اجتنبوا الأوثان التي هي رجس.

(وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) يعني: الكذب والبهتان. وقال ابن مسعود: شهادة الزور, وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال: "يا أيها الناس عدلت شهادة الزور بالشرك بالله", ثم قرأ هذه الآية. وقيل: هو قول المشركين في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. فهم بذلك يشهدون الزور.

تأملات

هذه الآية تتكلم عن تعظيم حرمات الله و التي بعدها بآيتين (الآية 32) تتكلم عن تعظيم شعائر الله، فيالها من معان تغيب عن الكثير من مجتمعات المسلمين، فتعظيم حرمات الله من تعظيم الله، فهو سبحانه الذي حرمها، فقد قالوا: "لا تنظر إلى صغر المعصية، و لكن انظر إلى عظم من عصيت".

ينبغي على كل مسلم أن يعالج قلبه من غفلته، و أن يكون دائم الذكر بأن الله يراه، و أن الله لا شك محاسبه، و أنه سيقف بين يديه، و سيسأل عن كل كبير و صغير، فيجاهد نفسه حتى يحقق التقوى و الورع، فلا يلتمس الأعذار، فيقول: إن هذا الذنب صغير، أو أنه ليس من الذنوب الواضحة، وما إلى ذلك من الأعذار التي يعلم كل واحد في نفسه أنها أعذار واهية، و أنه لم يتشبث بها إلا ليرضي هواه، أو يحصل من مكاسب الدنيا ما يتطلع إليه، و يكفينا في هذا الأمر حديث النبي صلى الله عليه و سلم، و هو من الأحاديث الأربعين النووية التي جمعها الإمام النووي لتكون الأحاديث التي تجمع كليات الإسلام، فعن أبي عبد الله: النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: (إن الحلال بينٌ، وإن الحرام بينٌ، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىً، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)

(السورة: الحج / الآية: 31)

{حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق}

تفسير

(حُنَفَاءَ لِلَّهِ) مخلصين له, (غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) قال قتادة: كانوا في الشرك يحجون, ويحرمون البنات والأمهات والأخوات, وكانوا يسمون حنفاء, فنزلت: "حنفاء لله غير مشركين به" أي: حجاجا لله مسلمين موحدين, يعني: من أشرك لا يكون حنيفا.

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ) أي: سقط, (مِنَ السَّمَاءِ) إلى الأرض, (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) أي: تستلبه الطير وتذهب به, والخطف والاختطاف: تناول الشيء بسرعة. (أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) أي: تميل وتذهب به, (فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) أي: بعيد.

تأملات

إن المتأمل في هذه الآية يجدها تصف حال المشرك وصفا شاملا دقيقا من جوانب متعددة منها:
1-المشرك بعيد كل البعد عن الحق: فبُعد من أشرك من الحق كبُعد من سقط من السماء فذهبت به الطير, أو هوت به الريح, فلا يصل إليه بحال.

2-إن المشرك (مالم يهده الله) يستمر في البعد كمن يسقط فهو يستمر في السقوط.

3-إن المشرك طريقه الهلاك فهو في عيشة ضنكة في الدنيا (تخطفه الطير) و نهايته النار و العياذ بالله (تهوي به الريح في مكان سحيق).

4-إن المشرك قد ترك الإيمان بالله و بذلك قد ترك طاعة أمره تعالى فما البديل؟ البديل هو طاعة شهواته أو طاعة رفقاء السوء أو طاعة كبراء المجرمين أو ...فكأنما تخطفه الطير، كل واحدة من هذه الشرور تجتذبه و تذيقه من شقائها و نكدها و كدرها فهو قد أسلم نفسه كمن أسلم جسده للطير تخطف كل منها جزء منه حتى يهلك.

5-إن المشرك تعصف به الفتن و الشبهات كمن يسقط من السماء فتذهب به الريح هنا و هناك حتى يستقر به الأمر إلى مكان بعيد لا خير فيه، فهو من ظلم نفسه "إن الشرك لظلم عظيم".

6-قال الحسن: شبه أعمال الكفار بهذه الحال في أنها تذهب وتبطل فلا يقدرون على شيء منها.

اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه و نستغفرك لما لا نعلمه.

(السورة: الحج / الآية: 32)

{ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب}

تفسير

(ذَلِكَ) يعني: الذي ذكرت من اجتناب الرجس وقول الزور, (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) قال ابن عباس "شعائر الله" البدن والهدي، وأصلها من الإشعار, وهو إعلامها ليعرف أنها هدي, وتعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقيل "شعائر الله" أعلام دينه, "فإنها من تقوى القلوب", أي: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.وقال بعضهم: أراد بالشعائر: المناسك ومشاهدة مكة.

تأملات

تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، و بالنظر إلى التفسير العام لشعائر الله و هو "أعلام دينه"، فإن هذا المعنى يشمل الشعائر الظاهرة التي يعلن فيها المسلمون توحيد ربهم و إفراده بالعبادة، فتقوى القلوب (التي هي عمل باطن خفي في القلب) تتعلق بتعظيم الشعائر (وهي عمل ظاهر يتعلق بالجوارح)، فهذه الآية مدرسة للدعاة إلى الله، وكأنها تقول: أيها الداعية: لا تفصل قلوب الناس عن جوارحهم! فلا تعلمهم أن الدين في القلب و لا أهمية للجوارح، و أيضا لا تعلمهم العمل الآلي الذي لا ينمي التقوى في القلب.

إن شعائر الله تستحق من المسلم كل تعظيم و إجلال و اهتمام، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:
1-التطيب و أخذ الزينة عند الذهاب إلى المسجد
2-الحرص على شعيرة صلاة الجماعة و إشعار الناس بأن وقتها لا يمكن أن يفرط فيه، ففي صحيح البخاري: عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.
3-الحرص على السنن الظاهرة من اطلاق اللحية و السواك و...فمن استهان بذلك فليقرأ الآية مرة أخرى
4-اللغة العربية من شعائر الإسلام و تجويد القرآن من شعائر الإسلام (بل من الواجب على المستطيع)
5-الحج و العمرة للمستطيع و عدم تأخيرها من تعظيم شعائر الله
6-بذل الجهد في التحري عند إنفاق الزكاة من تعظيم شعائر الله و لا يكن همه إخراجها إلى إي مكان.

و أمور أخرى كثيرة...نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يعظمون شعائره و ممن تتقي قلوبهم.

(السورة: الحج / الآية: 33)

{لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق}

تفسير

(لَكُمْ فِيهَا) أي: في البدن قبل تسميتها للهدي, (مَنَافِعُ) في درها ونسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها, (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) وهو أن يسميها ويوجبها هديا, فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها, هذا قول مجاهد, وقول قتادة والضحاك, ورواه مقسم عن ابن عباس.

وقيل: معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها عند الحاجة "إلى أجل مسمى", يعني: إلى أن تنحروها, وهو قول عطاء بن أبي رباح.

وقال بعضهم: أراد بالشعائر: المناسك ومشاهدة مكة. "لكم فيها منافع" بالتجارة والأسواق "إلى أجل مسمى" وهو الخروج من مكة.

(ثُمَّ مَحِلُّهَا) أي: منحرها, (إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) أي: منحرها عند البيت العتيق, يريد أرض الحرم كلها, كما قال: فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ (التوبة: 28) أي: الحرم كله.

(السورة: الحج / الآية: 34)

{ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين}

قال الله تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) أي: جماعة مؤمنة سلفت قبلكم, (جَعَلْنَا مَنْسَكًا) قرأ حمزة والكسائي بكسر السين هاهنا وفي آخر السورة, على معنى الاسم مثل المسجِد والمطلِع, أي: مذبحا وهو موضع القربان, وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر, مثل المدخَل والمخرَج, أي: إراقة الدماء وذبح القرابين, (لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) عند نحرها وذبحها, وسماها بهيمة لأنها لا تتكلم (أي أنها بُهم من الإبهام عكس الإفصاح) , وقال: "بهيمة الأنعام" وقيدها بالنَّعَم, لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير, لا يجوز إدخالهافي القرابين.

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أي: سموا على الذبائح اسم الله وحده, فإن إلهكم إله واحد, (فَلَهُ أَسْلِمُوا) انقادوا وأطيعوا, (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال ابن عباس وقتادة: المتواضعين. وقال مجاهد: المطمئنين إلى الله عز وجل, "والخبت" المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعين. وقال النخعي: المخلصين. وقال الكلبي: هم الرقيقة قلوبهم، وقد فسرتها الآية التي تليها: "الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم و المقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون".

تأملات

إن جميع الأنبياء و الرسل صلوات الله و سلامه عليهم جاؤوا بدين واحد و هو الإسلام، فقد قال الله تعالى: "ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل"[الحج 78]، وقال على لسان نوح: "فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين"[يونس 72]، و قال على لسان موسى: "وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين"[يونس 84]، و قال: "الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين".

إذاً فجميعهم جاؤوا بالإسلام، جاؤوا بالإسلام عقيدةً، جاؤوا بالتوحيد، فما من نبي إلا قال لقومه: "يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره"، فكانت العقيدة واحدة: "فإلهكم إله واحد فله أسلموا"، و ظلت الشرائع و العبادات تتغير بما يناسب أهل كل زمان و مكان: "ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه"، حتى كانت شريعة الإسلام العالمية الخالدة التي بُعث بها النبي محمد صلى الله عليه و سلم، فكمل بذلك الدين: "اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بِنَاءً فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ وَأَجْمَلَهُ ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ ، فَيَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا بِنَاءً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِلا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبِنَةِ ، أَلا وَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ ".

(السورة: الحج / الآية: 36)

{والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون}

تفسير

قوله عز وجل: (وَالْبُدْنَ) جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها, يريد: الإبل العظام الصحاح الأجسام, يقال بدن الرجل بدنا وبدانة إذا ضخم, فأما إذا أسن واسترخى يقال بدن تبدينا. قال عطاء والسدي: البدن: الإبل والبقر أما الغنم فلا تسمى بدنة. (جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) من أعلام دينه, سميت شعائر لأنها تشعر, وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي, (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ)

النفع في الدنيا والأجر في العقبى, (فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا) عند نحرها, (صَوَافَّ) أي: قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها, ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك. عن زياد بن جبير قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها, قال: ابعثها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث قوائم.

وقرأ ابن مسعود: "صوافن" وهي أن تعقل منها يد وتنحر على ثلاث, وهو مثل صواف. وقرأ أبي والحسن ومجاهد: "صوافي" بالياء أي: صافية خالصة لله لا شريك له فيها.

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) أي: سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض. وأصل الوجوب: الوقوع. يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب, (فَكُلُوا مِنْهَا) أمر إباحة وليس إلزام, (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) اختلفوا في معناهما:

فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة: "القانع" الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل, و "المعتر" الذي يسأل.

وروى العوفي عن ابن عباس: "القانع" الذي لا يعترض ولا يسأل, و "المعتر" الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل, فعلى هذين التأويلين يكون "القانع": من القناعة, يقال: قنع قناعة إذا رضي بما قسم له.

وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي: "القانع": الذي يسأل, "والمعتر": الذي يتعرض ولا يسأل, فيكون "القانع" من قنع يقنع قنوعا إذا سأل.

وقرأ الحسن: "والمعتري" وهو مثل المعتر, يقال: عره واعتره وعراه واعتراه إذا أتاه يطلب معروفه, إما سؤالا أو تعرضا.

وقال ابن زيد: "القانع": المسكين, "والمعتر": الذي ليس بمسكين, ولا يكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم .

(كَذَلِكَ) أي: مثل ما وصفنا من نحرها قياما, (سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) نعمة منا لتتمكنوا من نحرها, (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

(السورة: الحج / الآية: 37)

{لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين}

قوله تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا) وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله, فأنزل الله هذه الآية: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها). قال مقاتل: لن يُرفع إلى الله لحومها ولا دماؤها, (وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) ولكن تُرفع إليه منكم الأعمال الصالحة والتقوى, والإخلاص ما أريد به وجه الله, (كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) يعني: البدن, (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه, وهو أن يقول: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا, (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) قال ابن عباس: الموحدين.

(السورة: الحج / الآية: 38)

{ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور}

من أسرار الترتيب

إن آيات القرآن في ترتيبها مترابطة ترابطا دقيقا في غاية الحكمة، فكلما عايش المسلم آيات القرآن وقرأ كلام المفسرين و الصالحين كلما رأى من الحقائق و اللطائف في هذا الترابط، وهذا الترابط يكون ظاهرا واضحا في بعض المواضع، ولكنه في مواضع أخرى يحتاج إلى تفكر و بحث، ومن هذه المواضع التي تحتاج إلى التفكر موضع هذه الآية، فبعد أن تكلمت الآيات عن مناسك الحج من الآية 25 إلى الآية 37 تحولت الآيات إلى الجهاد و الإذن بقتال المشركين وحال المسلمين إن مكنهم الله من الأرض في الآيات من 38 إلى 41، فما العلاقة بين الموضوعين؟

بالنظر إلى الآية 25 وهي بداية الآيات التي تتكلم عن مناسك الحج نجدها تبدأ الكلام عن الحج بوصف الوضع الحالي (وقت مجتمع المشركين في مكة) "إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله و المسجد الحرام..."، فالله سبحانه قد فرض على المسلمين الحج لإعلان عقيدة التوحيد ولكن هؤلاء المشركين يصدون عن سبيل الله و عن المسجد الحرام، وإن الله تعالى يرى ذلك و هو "يدافع عن الذين آمنوا" فأذن لهم بالقتال.

وحول هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله في "الظلال": "تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة، المتصل بالله، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة.

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، بعد أن بلغ أقصاه، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله، ووعدهم النصر والتمكين، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها"

(السورة: النمل / الآية: 91)

{إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين}

تأملات

سورة النمل مكية نزلت بعد الشعراء، وهي تمضي على نسقها في الأداء: مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه، وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع، ويؤكده، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم، للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات. وموضوع السورة الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة: الإيمان بالله، وعبادته وحده، والإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب. والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله، لا يعلمه سواه، والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم، وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله،
ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني، وتصوير عاقبة المكذبين، وعاقبة المؤمنين.

و هذه الآية تأتي في التعقيب في ختام السورة حيث يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و سلم بتلخص دعوته ومنهجه في الدعوة: "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة" و هي مكة، وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، "الذي حرمها" أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم فتح مكة: (إن هذا البلد حرمه اللّه يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة، ولا يعضد شوكه ولا

ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا تُختلى خلاه)، "وله كل شيء" أي كما أن له مكة خلقا و أمر، فإن له كل شيء خلقا و أمرا، فكما أمر أن تكون مكة بلدا حراما فأحببتم ذلك لأنكم استمددتم سيادتكم على العرب به، فقد أمركم بالإسلام، فلم عصيتم في هذه؟ "وأمرت أن أكون من المسلمين" فبعد أن أعطانا الله تعالى هذه المعلومات التي تلفتنا إلى قدرته في آياته الكونية، وذكَّرنا بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به، فالشرع كما أمرك أمرني، فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسي به أولاً، لأنني واثق بصدق تبليغي عن الله، لذلك ألزمتُ نفسي به.

ثم يكتمل هذا التعقيب -الذي يلخص الرسالة و المنهج في الدعوة- في الآيات التالية بأن يكِلَهم إلى مصيرهم الذي يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان، ويختم بحمد الله كما بدأ، ويتركهم إلى الله يكشف لهم آياته، ويحاسبهم على ما يعملون: "و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فقل إنما أنا من المنذرين * وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون"

(السورة: القصص / الآية: 57)

{وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون}

أسباب النزول

نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكنا إن اتبعناك على دينك خفنا أن تُخرجنا العرب من أرضنا مكة. وهو معنى قوله: (نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) ، والاختطاف: الانتزاع بسرعة. قال الله تعالى: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحرمة الحرم. (يُجْبَى) أي: يجلب ويجمع، (إِلَيْهِ) يقال: جبيت الماء في الحوض أي: جمعته، قال مقاتل: يحمل إلى الحرم، (ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) أن ما يقوله حق.

(السورة: العنكبوت / الآية: 67)

{أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون}

تأملات

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه، الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنا، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى: "لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" [قريش: 1-4].

وقوله: (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و "بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ " [إبراهيم: 28]، وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه؛ ولهذا سلبهم الله ما كان

أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم.

وتشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن ينظر في النعم التي أنعمها الله عليه، فتكون هذه النعم سببا في الإيمان بالله و الشكر له سبحانه، و لكن من الناس من يجحد هذه النعم، ومن هنا سمي الكافر كافرا، لأنه كفر أي جحد و أنكر نعمة الله عليه، فما عصي الله تعالى إلا بنعمه! ينعم على الإنسان بالبصر فينظر إلى الحرام، و بالسمع فيسمع الحرام، و بالمال فينفق في الحرام و بالأمن فيجحد و ينسب الفضل لنفسه لا لخالقه.

أقبل رجل إلى إبراهيم بن أدهم .. فقال : يا شيخ .. إن نفسي .. تدفعني إلى المعاصي .. فعظني موعظة .. فقال له إبراهيم : إذا دعتك نفسك إلى معصية الله فاعصه .. ولا بأس عليك .. ولكن لي إليك خمسة شروط .. قال الرجل : هاتها .. قال إبراهيم : إذا أردت أن تعصي الله فاختبئ في مكان لا يراك الله فيه .. فقال الرجل : سبحان الله ..كيف أختفي عنه ..وهو لا تخفى عليه خافية.. فقال إبراهيم : سبحان الله .. أما تستحي أن تعصي الله وهو يراك .. فسكت الرجل .. ثم قال : زدني .. فقال إبراهيم : إذا أردت أن تعصي الله .. فلا تعصه فوق أرضه .. فقال الرجل : سبحاناالله .. وأين أذهب .. وكل ما في الكون له .. فقال إبراهيم : أما تستحي أن تعصي الله .. وتسكن فوق أرضه ؟قال الرجل : زدني .. فقال إبراهيم : إذا أردت أن تعصي الله .. فلا تأكل من رزقه .. فقال الرجل : سبحان الله .. وكيف أعيش .. وكل النعم من عنده .. فقال إبراهيم : أماتستحي أن تعصي الله .. وهو يطعمك ويسقيك .. ويحفظ عليك قوتك ؟قال الرجل : زدني .. فقال إبراهيم : فإذا عصيت الله .. ثم جاءتك الملائكة لتسوقك إلى النار .. فلا تذهب معهم.. فقال الرجل : سبحان الله .. وهل لي قوةعليهم .. إنما يسوقونني سوقاً .. فقال إبراهيم : فإذا قرأت ذنوبك فيصحيفتك .. فأنكر أن تكون فعلتها .. فقال الرجل : سبحان الله .. فأين الكرام الكاتبون .. والملائكة الحافظون .. والشهود الناطقون .. ثم بكى الرجل .. ومضى .. وهو يقول : أين الكرام الكاتبون .. والملائكة الحافظون .. والشهود الناطقون

(السورة: الصافات / الآية: 102)

{فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين}

هذا إبراهيم الشيخ: المقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن، ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام، طالما تطلع إليه، فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حليم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة .. ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه. ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .. نعم إنها إشارة. مجرد إشارة. وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً. ولكنها إشارة من ربه .. وهذا يكفي .. هذا يكفي ليلبي ويستجيب. ودون أن يعترض. ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد؟ !
ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء، يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب فهي كلمات المطمئن للأمر الذي يواجهه، والواثق بأنه يؤدي واجبه. وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه، في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله!

والأمر شاق - ما في ذلك شك - فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته .. إنما يطلب إليه أن يتولى ذبحه بيده! وهو - مع هذا - يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه. وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر. فالأمر في حسه

هكذا: ربه يريد، فليكن ما يريد. إن ابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة..

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضى كذلك وفي يقين .. " يا أبت " .. في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته. " افعل ما تؤمر " .. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه. يحس أن الرؤيا إشارة. وأن الإشارة أمر. وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب.
ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة: "ستجدني إن شاء الله من الصابرين" ولم يأخذها بطولة أو شجاعة أو اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة.. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به.

(السورة: الصافات / الآية: 103)

{فلما أسلما وتله للجبين}

تفسير

قوله تعالى: (فَلَمَّا أَسْلَمَا) أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: (أَسْلَمَا): استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

(وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: (وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) : أكبه على وجهه.

عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك عَرَض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه. فعالجه ليخلعه، فنُوديَ من خلفه: (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

قوعن ابن عباس أيضا: أضجعه على جبينه على الأرض والجبهة بين الجبينين, قالوا: فقال له ابنه الذي أراد ذبحه: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب, واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري وتراه أمي فتحزن, واشحذ شفرتك, وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون عليَّ فإن الموت شديد, وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني, وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل, فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني, فقال له إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ففعل إبراهيم ما أمر به ابنه, ثم أقبل عليه فقبله وقد ربطه وهو يبكي [والابن أيضًا يبكي] ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك السكين.

قال السدي: ضرب الله تعالى صفحة من نحاس على حلقه قالوا: فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي على جبيني فإنك إذا نظرت في وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى, وإني لا أنظر إلى الشفرة فأجزع, ففعل ذلك إبراهيم ثم وضع الشفرة على قفاه فانقلبت السكين ونودي: أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قال: لما رأى إبراهيم ذبح ابنه قال الشيطان: لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا, فتمثل له الشيطان رجلا وأتى أم الغلام, فقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: ذهب به

يحتطبان من هذا الشعب, قال: لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه, قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله قد أمره بذلك، قالت: فإن كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع ربه، فخرج الشيطان من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشي على إثر أبيه, فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أمره به ربه فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم عليه السلام فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي فيه، قال: والله إني لا أرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك هذا، فعرفه إبراهيم عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه لم يصب من إبراهيم وآله شيئًا مما أراد، قد امتنعوا منه بعون الله تعالى.

تأملات

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا، كان قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه .. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت. ولم يعد إلا الألم البدني و الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء، فمتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف،
وقد جازوا الامتحان بنجاح.

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا، فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة، وأنت - يا إبراهيم - قد فعلت.. قد جدت بكل شيء.. وبأعز شيء.. وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبق إلا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح..أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت..يفديها بذبح عظيم. قيل: إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل!

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته. ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها و تقوم عليها ولتعرف أنها الاستسلام لأمر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئا، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يأمر هو أن تقدم!

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء، ولا أن يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية. مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء، وقبل منها وفداها، وأكرمها كما أكرم أباها ..

(السورة: الفتح / الآية: 24)

{وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا}

أسباب النزول

عن أنس بن مالك رضي الله عنهم: أن ثمانين رجلا من أهل مكة, هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم

متسلحين يريدون غدر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه, فأخذهم سلمًا فاستحياهم, فأنـزل الله عز وجل هذه الآية: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم".

عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنِي قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم"، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: "اكتب باسمك اللهم"، وكتب: "هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة". فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله". فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل جئتم في عهد أحد؟ أو: هل جعل لكم أحد أمانا؟" فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنـزل الله: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا).

هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلا من الفريقين، وأوجد بينهم صلحا فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وقد ورد من حديث سلمة بن الأكوع أن جيئ بأولئك السبعين الأسارى فأوثقوهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليهم وقال: "أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه". قال: وفي ذلك أنـزل الله: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ) الآية.

(السورة: الفتح / الآية: 25)

{هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما}

تفسير

قال الله عز وجل: (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعني كفار مكة, (وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أن تطوفوا به, (وَالْهَدْيَ) أي: وصدوا الهدي, وهي البدن التي ساقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سبعين بدنة, (مَعْكُوفًا) محبوسًا, يقال: عكفته عكفا إذا حبسته وعكوفا للازم, كما يقال: رجع رجعًا ورجوعًا, (أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) منحره وحيث يحل نحره يعني الحرم, (وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ) يعني المستضعفين بمكة, (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ) لم تعرفوهم, (أَنْ تَطَئُوهم) بالقتل وتوقعوا بهم, (فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) قال ابن زيد: معرة إثم. وقال ابن إسحاق: غرم الدية.

وقيل: الكفارة لأن الله عز وجل أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية, فقال: فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ (النساء-92) .

وقيل: هو أن المشركين يعيبونكم ويقولون قتلوا أهل دينهم, والمعرة: المشقة, يقول: لولا أن تطؤوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم فيلزمكم بهم كفارة أو يلحقكم سبة. وجواب لولا محذوف, تقديره: لأذن لكم في دخولها ولكنه حال بينكم وبين ذلك.

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) فاللام في "ليدخل" متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام, يعني: حال بينكم وبين ذلك ليدخل الله في رحمته في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوها, (لَوْ تَزَيَّلُوا) لو تميزوا يعني المؤمنين من الكفار, (لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) بالسبي والقتل بأيديكم.

وقال بعض أهل العلم: "لعذبنا" جواب لكلامين أحدهما: "لولا رجال", والثاني: "لو تزيلوا", ثم قال: (لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) يعني المؤمنين والمؤمنات.

وقوله: (فِي رَحْمَتِهِ) أي جنته. وقال قتادة في هذه الآية: إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة.

السيرة و الغزوات

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه, يريدون زيارة البيت, لا يريد قتالا وساق معه سبعين بدنة, والناس سبعمائة رجل, وكانت كل بدنة عن عشرة نفر, فلما أتى ذا الحليفة قلَّدَ الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة, وبعث عينًا له من خزاعة يخبره عن قريش, وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان بغدير الأشطاط قريبًا من عُسْفان, أتاه عينه الخزاعي وقال: إن قريشًا قد جمعوا لك جموعًا, وقد جمعوا لك الأحابيش, وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أشيروا عليّ أيها الناس, أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين, وإن نجوا تكن عنقًا قطعها الله؟ أو ترون أن نؤم البيت فمن صَدَّنا عنه قاتلناه؟".

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حربًا, فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه.

فقال: "امضوا على اسم الله"، فنفروا, قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة, فخذوا ذات اليمين", فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركضٍ نذيرًا لقريش, وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته, فقال الناس: حلٍ حلٍ, فألحت, فقالوا: "خلأت القصواء, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق, ولكن حبسها حابس الفيل", ثم قال: "والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياه" , ثم زجرها فوثبت.

قال: فعدل عنهم حتى نـزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا, فلم يلبث الناس أن نـزحوه, وشكا الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم العطش, فنـزع سهمًا من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه يقال له ناجية بن عمير, وهو سائق بدن النبي صلى الله عليه وسلم, فنـزل في البئر فغرزه في جوفه, فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه, فبينما هم كذلك إذ جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة, فقال: إني تركت كعب بن لؤي نـزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل, وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنا لم نجئ لقتال أحد, ولكنا جئنا معتمرين, وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم, فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس, فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا, وإلا فقد جُمُّوا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي, أو لينفذن الله أمره" .

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول, فانطلق حتى أتى قريشًا, قال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل, وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا, قال: فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء, وقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول.

قال: سمعته يقول كذا وكذا, فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم. فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: أي قوم ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى, قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى, قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ, فلما بلحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى, قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته, قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم, فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى, فإني والله لأرى وجوهًا وأشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا

ويدعوك.

فقال له أبو بكر الصديق: امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه؟.

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر, فقال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم, وكلما كلمه أخذ بلحيته, والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر, فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف, وقال: أَخِّر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم, فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة, فقال: أي غُدَر ألست أسعى في غدرتك.

وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام فأقبل, وأما المال فلست منه في شيء".

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم, قال: فوالله-ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم, فدلك بها وجهه وجلده, وإذا أمرهم ابتدروا أمره, وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه, وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده, وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له, فرجع عروة إلى أصحابه, فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي, والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا, والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم, فدلك بها وجهه وجلده, وإذا أمرهم ابتدروا أمره, وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه, وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده, وما يحدون إليه النظرة تعظيمًا له, وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته, فقالوا: ائته, فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن, فابعثوها له", فبعثت له واستقبله الناس يلبون, فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت؟

فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت, فما أرى أن يصدوا عن البيت.

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش, فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراه, فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس, رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظامًا لما رأى فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده, وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله, فقالوا له: اجلس إنما أنت رجل أعرابي لا علم لك, فغضب الحليس عند ذلك, فقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم, ولا على هذا عاقدناكم, أن تصدوا عن بيت الله من جاءه معظمًا له, والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له, أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد, فقالوا له: مه, كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به.

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص, فقال: دعوني آته, فقالوا: ائته, فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا مكرز وهو رجل فاجر, فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم, فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو, وقال عكرمة: فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: قد سهل لكم من أمركم.

قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو, فقال: هات نكتب بيننا وبينكم كتابًا, فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو, ولكن اكتب باسمك اللهم, كما كنت تكتب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليٍّ: " اكتب باسمك اللهم, ثم قال: اكتب: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم" .

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك, ولكن اكتب: محمد بن عبد الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني, اكتب يا علي: محمد بن عبد الله.

قال الزهري: وذلك لقوله: لا يسألون خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها, فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو, واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين, يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض, فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت, فنطوف به, فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب إنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل, فكتب, فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك -إلا رددته إلينا, فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟.

وروى أبو إسحاق عن البراء قصة الصلح وفيه قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئًا ولكن أنت محمد بن عبد الله, قال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله, ثم قال لعليّ رضي الله عنه: امح رسول الله, قال: لا والله لا أمحوك أبدًا, قال: "فأرنيه", فأراه إياه, فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده, وفي روايته: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن أن يكتب, فكتب: هذا ما قضى محمد بن عبد الله.

قال البراء: صالح على ثلاثة أشياء: على أن من أتاه من المشركين رده إليهم, ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه, وعلى أن يدخلها من قابل, ويقيم بها ثلاثة أيام, ولا يدخلها إلا بِجُلُبّانِ السلاح السيف والقوس ونحوه.

وروى ثابت عن أنس: أن قريشًا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم فاشترطوا: أن من جاءنا منكم لم نرده عليكم, ومن جاءكم منا رددتموه علينا, فقالوا: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: "نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله, ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا".

رجعنا إلى حديث الزهري قال: فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو, يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة, حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين, فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ, فقال النبي: إنا لم نقض الكتاب بعد, قال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدًا, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فَأَجِرْه لي, فقال: فما أنا بمجيره لك, قال: بلى فافعل, قال: ما أنا بفاعل, ثم جعل سهيل يجره ليرده إلى قريش, قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله.

وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا جندل احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا, إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقدًا وصلحًا, وإنا لا نغدر, فوثب عمر يمشي إلى جنب أبي جندل, ويقول: اصبر فإنما هم المشركون ودم أحدهم كدم كلب, ويدني قائم السيف منه, قال عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضن الرجل بأبيه.

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون في الفتح, لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم, فلما رأوا ذلك دخل الناسَ أمرٌ عظيمٌ حتى كادوا يهلكون, وزادهم أمر أبي جندل شرًّا إلى ما بهم.

قال عمر: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ.

قال الزهري في حديثه عن عروة عن مروان والمسور, ورواه أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم, فقلت: ألست نبي الله حقًا؟ قال: بلى, قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى, قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى, قلت: فلم نعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري, قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى, أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا قال: فإنك آتيه ومطوف

به, قال: فأتيت أبا بكر, فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى, قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله ليس يعصي ربه وهو ناصره, فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق, قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى, أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا.

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا, ثم احلقوا, قال: فوالله ما قام رجل منهم, حتى قال ذلك ثلاث مرات, فلما لم يقم منهم أحد, قام فدخل على أم سلمة, فذكر لها ما لقي من الناس, فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك, فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك, نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا, وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضًا غمّا.

قال ابن عمر وابن عباس: حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرحم الله المحلقين, قالوا: والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين, قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين, قالوا: يا رسول الله فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لأنهم لم يشكوا. قال ابن عمر: وذلك لأنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت.

قال ابن عباس: وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية في هداياه جملا لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك.

وقال الزهري في حديثه: ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ , حتى بلغ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ (الممتحنة-10) , فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك, فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيانَ, والأخرى صفوان بن أمية, قال: فنهاهم أن يردوا النساء وأمر برد الصداق.

قال: ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة, فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد, رجل من قريش وهو مسلم, وكان ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثا في طلبه رجلا من بني عامر بن لؤي, ومعه مولى لهم, فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم, وقالا العهد الذي جعلت لنا, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت, ولا يصح في ديننا الغدر, وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا, ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة, فنزلوا يأكلون من تمر لهم, فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا جيدًا, فاستله الآخر, فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به, فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه, فأخذه وعلاه به فضربه حتى برد, وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: لقد رأى هذا ذعرًا, فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم, قال: ويلك مالك؟ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول, فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا السيف حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم, فقال: يا نبي الله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل أمه مِسْعَر حرب, لو كان معه أحد, فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم, فخرج حتى أتى سيف البحر, وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بصير: ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد, فخرج عصابة منهم إليه, وانفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير, حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلا فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم, فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم, فمن أتاه فهو آمن, فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم, فقدموا عليه بالمدينة, فأنزل الله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا" حتى بلغ "حمية الجاهلية", وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله صلى الله عليه وسلم, ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم, وحالوا بينه وبين البيت .

(السورة: الفتح / الآية: 26)

{إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما}

تفسير

قوله تعالى: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت, ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم, وأنكروا محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم, والحمية: الأنفة, يقال: فلان ذو حمية إذا كان ذا غضب وأنفة.

قال مقاتل: قال أهل مكة: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا, فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا, واللات والعزى لا يدخلونها علينا, فهذه "حمية الجاهلية", التي دخلت قلوبهم.

(فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) حتى لم يدخلهم ما دخلهم من الحمية فيعصوا الله في قتالهم, (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) قال ابن عباس, ومجاهد, والضحاك, وقتادة, وعكرمة, والسدي, وابن زيد, وأكثر المفسرين: كلمة التقوى "لا إله إلا الله". وروي عن أبيّ بن كعب مرفوعًا.

وقال عليٌّ وابن عمر: "كلمة التقوى" لا إله إلا الله والله أكبر .

وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له, له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقال الزهري: هي بسم الله الرحمن الرحيم .

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا) من كفار مكة, (وَأَهْلَهَا) أي وكانوا أهلها في علم الله, لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبة نبيه أهل الخير, (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) .

(السورة: الفتح / الآية: 27)

{لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا}

قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين, ويحلقون رؤوسهم ويقصرون, فأخبر بذلك أصحابه, ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك, فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم, فأنزل الله هذه الآية.

وروي عن مجمع بن جارية الأنصاري: قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم, فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر, فقال بعضهم: ما بال الناس؟ فقالوا: أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم, قال: فخرجنا نوجف, فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفًا على راحلته عند كراع الغميم, فلما اجتمع إليه الناس قرأ: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا , فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: "نعم والذي نفسي بيده" .

ففيه دليل على أن المراد بالفتح صلح الحديبية, وتحقق الرؤيا كان في العام المقبل, فقال جل ذكره:

"لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق", أخبر أن الرؤية التي أراه إياها في مخرجه إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام صدق وحق.

قوله: (لَتَدْخُلُنَّ) يعني وقال: لتدخلن. وقال ابن كيسان: "لتدخلن" من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حكاية عن رؤياه, فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك, وإنما استثنى مع علمه بدخولها بإخبار الله تعالى, تأدبًا بآداب الله, حيث قال له: وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (الكهف-23) .

وقيل الاستثناء واقع على الأمن لا على الدخول, لأن الدخول لم يكن فيه شك, كقول النبي صلى الله عليه وسلم عند دخول المقبرة: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" ، فالاستثناء راجع إلى اللحوق لا إلى الموت.

(مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ) كلها, (وَمُقَصِّرِينَ) بأخذ بعض شعورها, (لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أن الصلاح كان في الصلح وتأخير الدخول, وهو قوله تعالى: وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ الآية(الفتح-25) . (فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) أي من قبل دخولكم المسجد الحرام, (فَتْحًا قَرِيبًا) وهو صلح الحديبية عند الأكثرين, وقيل: فتح خيبر.

أسباب النزول

قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أري في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين, ويحلقون رؤوسهم ويقصرون, فأخبر بذلك أصحابه, ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك, فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق عليهم, فأنزل الله هذه الآية.

(السورة: الطور / الآية: 4)

{والبيت المعمور}

تفسير

(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) بكثرة الغاشية والأهل, وهو بيت في السماء حذاء العرش بحيال الكعبة يقال له: الضُّرَاح, حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض, يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبدًا.

(السورة: الممتحنة / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل}

(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) قيل: أي المودة، "والباء" زائدة، كقوله: وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ (الحج-25) وقال الزّجَّاج: معناه تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وسِرَّه بالمودة التي بينكم وبينهم (وَقَدْ كَفَرُوا)"الواو "للحال، أي: وحالهم أنهم كفروا (بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) يعني القرآن (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ) من مكة (أَنْ تُؤْمِنُوا) أي لأن آمنتم، كأنه قال: يفعلون ذلك لإيمانكم (بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ) هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله: "لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم" (جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) قال مقاتل: بالنصيحة (وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ) من المودة للكفار (وَمَا أَعْلَنْتُمْ) أظهرتم بألسنتكم (وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) أخطأ طريق الهدى.

أسباب النزول

عن علي رضي الله عنه: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: "انطلقوا حتى تأتوا (روضة خاخ) فإن بها ظعينة (أي امرأة) معها كتاب فخذوه منها" قال: فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لتُلقين الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقًا في قريش -يقول كنت حليفًا ولم أكن من أنفسها-وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت -إذ فاتني ذلك من النسب فيهم-أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله تعالى هذه السورة: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة" إلى قوله: "سواء السبيل".

السيرة و الغزوات

نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز لفتح مكة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسلمة جئت؟ قالت: لا قال أمهاجرة جئت؟ قالت: لا قال: فما جاء بك قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالِيَّ وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال لها: وأين أنت من شبان مكة؟ وكانت مغنية نائحة، قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى، فكتب معها إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها بُرْدًا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم، فخذوا حِذْركم.

فخرجت سارة، ونزل جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا وعمارًا والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرسانًا فقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا "روضة خاخ" فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوا منها وخلوا سبيلها وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها.

قال: فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها كتاب، فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابًا فهمُّوا بالرجوع، فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلَّ سيفه فقال: أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك. فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها وكانت قد خبأته في شعرها فخلوا سبيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حاطب، فأتاه فقال: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت غريبًا فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يدًا، وقد علمت، أن الله

ينـزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذره.

فقام عمر بن الخطاب فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ فأنـزل الله عز وجل في شأن حاطب: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء".

(السورة: الممتحنة / الآية: 10)

{يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم}

عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمسور بن مخرمة يخبران عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ (يوم صلح الحديبية)، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لا يأتيك منا أحد -وإن كان على دينك-إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك وأبي سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فرد النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحدٌ من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلمًا، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنـزل الله فيهن: "إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن" إلى "ولا هم يحلون لهن".

قال عروة فأخبرتني عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحنهن بهذه الآية: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ..."إلى قوله:"...غَفُورٌ رَحِيمٌ" [الممتحنة 12].

قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقرت بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بايعتك كلامًا يكلمها به، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ما بايعهن إلا بقوله.

قال ابن عباس: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرًا حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يردوه إليه، وكتبوا بذلك كتابًا وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مُسْلِمةً بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم -وقال مقاتل هو: صيفي بن الراهب-في طلبها، وكان كافرًا، فقال: يا محمد ردَّ علي امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد، فأنـزل الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات" من دار الكفر إلى دار الإسلام (فَامْتَحِنُوهُنَّ).

قال ابن عباس: امتحانها: أن تستحلف ما خرجت لبغض زوجها ولا عشقًا لرجل من المسلمين، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا لحدثٍ أحدثته ولا لالتماس دنيا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحبًا لله ولرسوله.

قال فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك فحلفت فلم يردَّها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها؛ فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء بعد الامتحان ويعطي أزواجهن مهورهن.

(اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ) أي هذا الامتحان لكم، والله أعلم بهنَّ (فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) ما أحل الله مؤمنة لكافر (وَآتُوهُمْ) يعني أزواجهن الكفار (مَا أَنْفَقُوا) عليهن يعني المهر الذي دفعوا إليهن (وَلا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أي مهورهن، أباح الله نكاحهن للمسلمين، وإن كان لهن أزواج في دار الكفر لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار (وَلا تُمْسِكُوابِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)"والعِصَم" : جمع العصمة، وهي ما يعتصم به من العقد والنسب. "والكوافر" : جمع الكافرة.

نهى الله المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الزهري: فلما نـزلت هذه الآية طلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة مشركتين: قُرَيْبَة بنت أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعية أم ابنه عبد الله بن عمر، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم، وهما على شركهما. وكانت أروى بنت ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب تحت طلحة بن عبيد الله، فهاجر طلحة وهي بمكة على دين قومها ففرق الإسلام بينهما فتزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أبي العاص بن الربيع أسلمت ولحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأقام أبو العاص بمكة مشركًا، ثم أتى المدينة فأسلم، فردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(وَاسْأَلُوا) أيها المؤمنون (مَا أَنْفَقْتُمْ) أي: إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدة فاسألوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منهم (وَلْيَسْأَلُوا) يعني: المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم (مَا أَنْفَقُوا) من المهر ممن تزوجها منكم (ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال الزهري: لولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرّد الصداق، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد فلما نـزلت هذه الآية أقر المؤمنون بحكم الله عز وجل وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما أمروا به من أداء نفقات المسلمين على نسائهم فأنـزل الله عز وجل الآية التالية لهذه الآية: "وَإِنْ فَاتَكُمْ..." [الممتحنة 11]

(السورة: الممتحنة / الآية: 11)

{وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون}

(وَإِنْ فَاتَكُمْ) أيها المؤمنون (شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ) فلحقن بهم مرتدات (فَعَاقَبْتُمْ) قال المفسرون: معناه غنمتم، أي غزوتم فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، وقيل: ظهرتم وكانت العاقبة لكم، وقيل: أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم، قرأ حميد الأعرج "فعقَّبتم" بالتشديد، وقرأ الزهري: "فعقِبتم" خفيفة بغير ألف وقرأ مجاهد " فأعقبتم " أي صنعتم بهم كما صنعوا بكم. وكلها لغات بمعنى واحد، يقال: عاقب وعقَّب وعقَب، وأعَقب وتعقَّب وتعاقب واعتقب: إذا غنم. وقيل: "التعقيب": غزوة بعد غزوة (فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ) إلى الكفار منكم (مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا) عليهن من الغنائم التي صارت في أيديكم من أموال الكفار. وقيل: فعاقبتم المرتدة بالقتل.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين والمهاجرين ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان وكانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية ابن المغيرة أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، وعزة بن عبد العزيز بن نضلة، وزوجها عمرو ابن عبدود، وهند بنت أبي جهل بن هشام، كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب، فكلهن رَجَعْن عن الإسلام، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة .

(السورة: الممتحنة / الآية: 12)

{يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم}

تفسير

قوله عز وجل: (وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ) أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية قوله (وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) ليس المراد منه نهيهن عن الزنا لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولودًا وتقول لزوجها هذا ولدي منك فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها. قوله (وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) أي في كل أمر وافق طاعة الله. قال بكر بن عبد الله المزني: في كل أمر فيه رشدهن. وقال مجاهد: لا تخلو المرأة بالرجال. وقال سعيد بن المسيب والكلبي وعبد الرحمن بن زيد: هو النهي عن النوح والدعاء بالويل وتمزيق الثوب وحلق الشعر ونتفه وخمش الوجه، ولا تحدِّث المرأة الرجال إلا ذا محرم، ولا تخلو برجل غير ذي محرم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم.

عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا "أن لا يشركن بالله شيئا" ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأةٌ يدها فقالت: أسعَدْتني فلانة أريد أن أجزيها فما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا فانطلقت ورجعت وبايعها.

عن أبا مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة" . وقال: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب"

عن مسروق عن عبد الله قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية".

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: "لا يشركن بالله شيئا" قالت: وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يَدَ امرأة إلا امرأة يملكها.

عن محمد بن المنكدر، سمع أميمة بنت رقية تقول: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة، فقال لنا: "فيما استطعتن وأطقتن"، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم بنا من أنفسنا قلت: يا رسول الله بايعنا قال سفيان: يعني صافحنا فقال: "إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة كقولي لمائة امرأة" .

السيرة و الغزوات

وذلك يوم فتح مكة لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال، وهو على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل منه، وهو يبايع النساء بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبلغهن عنهُ وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة متنكرة مع النساء خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبايعكن "على أن لا تشركن بالله شيئًا" فرفعت هند رأسها وقالت: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام، والجهاد فقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم "ولا يسرقن" فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات، فلا أدري أيحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك، فقال: "ولا يزنين" فقالت هند: أو تزني الحرة؟ فقال: "ولا يقتلن أولادهن" فقالت هند: ربيناهن صغارًا وقتلتموهم كبارًا فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك

عمر رضي الله عنه حتى استلقى، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن" - وهي أن تقذف ولدًا على زوجها ليس منه-قالت هند: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: "ولا يعصينك في معروف" قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء. فأقَرَّ النسوة بما أخذ عليهن.

(السورة: البروج / الآية: 3)

{وشاهد ومشهود}

الحديث و السنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اليوم الموعود : يوم القيامة، واليوم المشهود : يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة) "رواه الترمذي وحسنه الألباني".

(السورة: الفجر / الآية: 2)

{وليال عشر}

فقه

روي عن ابن عباس: أنها العشر الأوَل من ذي الحجة. وهو قول مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، والكلبي.

و العشر الأول من ذي الحجة لها فضل عظيم فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحِ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ يَعْنِي أَيَامَ الْعَشْرِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ , وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : " وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلا رَجُلا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ"، فحري بالمسلم أن يعد العدة لاستغلال هذه الأيام في العمل الصالح فينوي أعمالا صالحة من الحفاظ على صلاة الجماعة من الركعة الأولى في الخمس صلوات و الصيام و رصد مبلغ من المال للصدقة و الإكثار من ذكر الله تعالى و الصلاة و السلام على النبي صلى الله عليه و سلم و تحديد ورد يومي من القرآن و التوبة الصادقة و بر الوالدين و حسن الخلق و قيام الليل، فإن كان مستطيعا للحج فهذا أفضل ما يفعله في هذه الأيام، فإن لم يكن حاجا و كان مستطيعا للأضحية فهي من أفضل الأعمال في هذه الأيام، فإن لم يستطع الأضحية فليكثر من ذكر الله تعالى.

(السورة: الفجر / الآية: 3)

{والشفع والوتر}

تفسير

قال ابن عباس: الشفع يوم الأضحى، والوتر يوم عرفة، وهو قول عكرمة والضحاك.
يقسم الله تعالى بيوم عرفة و يوم النحر و العظيم لا يقسم إلا بعظيم.

(السورة: البلد / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم لا أقسم بهذا البلد}

اللغة

من أساليب اللغة العربية إدخال لا النافية للجنس علي فعل القسم:مثل "لا أقسم بهذا البلد"، أو قبل الأداة: مثل "فلا و ربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم..."

مجمل أقوال العلماء في (لا) الواردة في القسم
في نحو قوله عز وجل: (لا أقسم بهذا البلد)، (لا أقسم بمواقع النجوم)، و(لا أقسم بيوم القيامة)

1- (لا) زائدة للتوكيد والمعنى (فأقسم ..)
ودخلت القسم من أجل المبالغة في توكيده، كأنهم ينفون ما سوي المقسم عليه فيفيد تأكيد القسم به.

وحرف الزيادة في العربية له دور في إثبات الكلام وتأكيده، وإن فقد هذا الحرف تأثر المعنى بفقد معنى التوكيد منه فصار أقل درجة، ومن هنا نفهم أن حرف الزيادة ليس عبئا إضافيا أو شيئا مهملا يمكننا أن نتخلص منه بسهولة
بل لا يمكن التخلص منه إلا أن نحتمل عواقب طرحه والتخلي عنه وهي فقدان درجة من درجات الأمر الذي نتحدث عنه أي التأثير في المعنى الذي نريد.

2- لام الابتداء مشبعةً (لَأُقسم => لا أقسم)
هي لام الابتداء أشبعت فتحتها فتولدت عنها ألف كقول الشاعر: أعوذ بالله من العقراب
أشبعت فتحة الراء فيها فتولد عنها ألف وإنما هي العقرب
ولام الابتداء لا تدخل على الفعل ودخولها في الآية على جملة من مبتدأ وخبر، والتقدير: فلأنا أقسم ثم حذف المبتدأ.

3- (ألا) الافتتاحية
وسهلت الهمزة تخفيفا لكثرة دورانها في الكلام والتقدير: ألا أقسم

4-(لا) نافية: ردا على كلام سابق، فهي نافية لما قبلها تابعة لكلام سابق ويقدر المحذوف بكلام مناسب مفهوم مما تقدم
ثم يستأنَف بالقسم (أقسم بـ ...)، بمعنى : أيّ لا أعظمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فهو عظيم في نفسه وهو حقيق بأكثر من هذا.

5-نفي القسم: بمعني لا أقسم به إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلي قسم أصلا فضلا عن هذا القسم العظيم. ونفي الحاجة للقسم يكون في مواضع الثقة و اليقين ويهدف إلى التأكيد والتقرير.

والسر البياني لهذا الأسلوب يعتمد في قوة اللفت على ما يبدو بين النفي والقسم من مفارقة مثيرة لأقصى الانتباه
وما نزال بسليقتنا اللغوية نؤكد الثقة بنفي الحاجة معها إلى القسم فتقول لمن تثق فيه: لا تقسم، أو: من غير يمين. مقررا بذلك أنه موضع ثقتك فلست بحاجة إلى أن يقسم لك كما تقول لصاحبك : لا أوصيك بكذا تأكيدا للوصية بنفي الحاجة إليها.

(السورة: البلد / الآية: 2)

{وأنت حل بهذا البلد}

تفسير

(لا أُقْسِمُ) يعني، أقسمُ (بِهَذَا الْبَلَدِ) يعني مكة (وَأَنْتَ حِلٌّ) أي حلال، (بِهَذَا الْبَلَدِ) تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ليس عليك ما على الناس فيه من الإثم.

أحل الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، حتى قاتل وَقَتل وأمر بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومِقْيَس بن صُبَابة وغيرهما، فأحل دماء قوم وحرم دماء قوم، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم قال:" إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ولم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة".

والمعنى: أن الله تعالى لما أقسم بمكة دلَّ ذلك على عظيم قدرها مع حرمتها، فوعد نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يحلها له حتى يقاتل فيها، وأن يفتحها على يده، فهذا وعد من الله عز وجل بأن يحلها له.

(السورة: التين / الآية: 3)

{وهذا البلد الأمين}

تأملات

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:
سورة التين: {والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين}.
أيمانٌ أربعٌ متتابعة على أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم. {والتين والزيتون} ثمرات معروفة ويرى جماعة من العلماء أن الله أراد القسم بهذا الثمر، ولو أقسم بغيره جاز، فكل ما تنبت الأرض من دلائل القدرة. وهل أروع وأبرع من أن ينشق الطين عن طعم حلو ورائحة زكية ولون زاه؟ ولعله مروى ومسمد بالأقذاء. من الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهية؟ إنه الله. ويرى المحققون أن القسم هو بمواطن الشرائع الأولى، وهذا أوفق في الجمع بينها. ويؤيده ما روى عن ابن عباس أن التين هو مسجد نوح الذي بناه على الجودى بعد انتهاء الطوفان. وأن الزيتون هو المسجد الأقصى الذي بناه إبراهيم بعدما بنى الكعبة. {وطور سنين} مكان تجلى الله على موسى وتشريفه بالرسالة. و{البلد الأمين} مكة موطن الإسلام ومشرق أنواره. والمقسم عليه هو خلق الإنسان في أحسن تقويم! هل حسن التقويم صورته الحسنة وقامته المديدة؟ لا، ليس ذاك ما يشرف به الإنسان. وفى الحديث: "إن الله، عَزَّ وَجَلَّ، لا ينظر إلى صوركم وألوانكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". قد يكون القوام الممشوق بعض ما امتاز به بنو آدم، ولكن امتيازهم الأول، ولعله أيضا الأخير، هو ذكاء العقل واستقامة الفطرة. إن نفخة من روح الله الأعلى سرت في أوصال الإنسان فجعلته كائنا خطير الشأن، وفى تكوينه الأول إشارة إلى أنه يولد بالتوحيد، والاستقامة؟ ثم تعدو عليه البيئة الرديئة، فإذا هو يميل ويعوج وينسى أصله الرفيع. وفي الآية: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون}. ولكن الناس عندما ينسون ربهم وتفسد فطرتهم، يقترفون آثاما تقشعر منها الأبدان. لم إذا توعد الطفلة؟

لم إذا تحرق الزوجة السليمة مع زوجها الذي سبقها بالموت؟ لم إذا يعذب سجين حتى يهلك؟ لم إذا يكتم بعض الناس الحق؟ لم إذا يضن البخيل بالعطاء وهو مستغن عنه؟ لم إذا ننكر أن الله هو خالقنا؟ هذه كلها سفالات يرتكس البشر فيها، ويبتعدون بها عن فطرة الله..إن الفطرة الجميلة تبقى مع الحفاظ على الصلاح والتقوى، وتضيع إذا جف الإيمان. وهذا معنى الآيات: {ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون}. مقطوع. {فما يكذبك بعد} أيها الإنسان {بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين}. لم إذا ينكر البعض الإسلام ويحاربه ويصد عنه؟ بأى فكر يفعل ذلك؟ وقد تركت شعوب حكمة الحكيم واستبدلت بالإسلام شرائع مغموصة لا تثمر خيرا أبدا فيا عجبا! جاء في الحديث: «من قرأ منكم {والتين والزيتون} فانتهى إلى قول: {أليس الله بأحكم الحاكمين}، فليقل: وأنا على ذلك من الشاهدين». اهـ.

من أسرار الترتيب

قال البقاعي:
لما ذكر سبحانه وتعالى في تلك السورة (سورة الشرح "ألم نشرح لك صدرك..." التي قبل سورة التين) أكمل خلقه وما كمله به، وختمها بالأمر بتخصيصه سبحانه وتعالى بالرغبة إليه، فكان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه ويبذل الجهد لمولاه في كل ما يرضاه، ذكر في هذه أنه سبحانه وتعالى كما جعل ذاته أكمل ذوات المخلوقات خصه بأن جعل نوعه صلى الله عليه وسلم أكمل الأنواع وهو الإنسان، وأصله أعظم الأصول هو إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وبلده أفضل البلاد وهي مكة، وأن من عاداه بمنابذة شرعه أسفل الخلق، وأن له سبحانه وتعالى تمام القدرة، وهو فاعل بالاختيار، يعلي من يشاء ويسفل من يشاء، فمنزلتها من آخر تلك منزلة العلة من المعلول، وأقسم فيها بأشياء أشار بها إلى شرفها في أنفسها وفي عجيب صنعها وشرف البقاع التي يكون بها إيماء إلى ما شرفها به مما أظهر بها من الخير والبركات بسكنى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والصالحين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فكانت مهاجر إبراهيم ومولد عيسى وأكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومنشأهم، وكان منها مظهر نبوة موسى، ومظهر نبوة إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وولده خاتم الأنبياء الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ومكان البيت الذي هو قوام للناس، وهدى للعالمين، إلى غير ذلك من الإشارات الظاهرات والدلالات الواضحات على تمام قدرته وفعله بالاختيار، لأنه يعلي من يشاء من العقلاء وغيرهم من البقاع وغيرها على {أحسن تقويم}، ويسفل من يشاء من ذلك كله إلى {أسفل سافلين}.

(السورة: الفيل / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل}

تفسير

قال مقاتل: كان معهم فيل واحد. وقال الضحاك: كانت الفيلة ثمانية. وقيل اثنا عشر، سوى الفيل الأعظم، وإنما وُحِّد لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم.

السيرة و الغزوات

كانت قصة أصحاب الفيل -على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وذكره الواقدي -:(أقسمها على مجموعة فصول لطولها)

الفصل الأول:أبرهة يعزم على هدم الكعبة

أن النجاشي ملك الحبشة كان قد بعث "أرياط" إلى أرض اليمن فغلب عليها، فقام رجل من الحبشة، يقال له: "أبرهة بن الصباح" أبو يكسوم، فسَاخَطَ "أرياطَ" في أمر الحبشة، حتى انصدعوا صدعين، وكانت طائفة مع أرياط، وطائفة مع أبرهة، فتزاحفا فقتل أبرهة، أرياطَ، واجتمعت الحبشة لأبرهة، وغلب على اليمن وأقرَّه النجاشي، على عمله.

ثم إن أبرهة رأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله، فبنى كنيسة بصنعاء وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يُبْن لملك مثلها، ولست منتهيًا حتى أصرف إليها حج العرب، فسمع به رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إليها مستخفيًا فدخلها ليلا فقعد فيها وتغوط بها، ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة فقال: من اجترأ علي ولطخ كنيستي بالعذرة؟ فقيل له: صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة عند ذلك: ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه بفيله، وكان له فيل يقال له محمود، وكان فيلا لم ير مثله عِظَمًا وجِسْمًا وقوة، فبعث به إليه، فخرج أبرهة من الحبشة سائرا إلى مكة، وخرج معه الفيل، فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقًا عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفر، بمن أطاعه من قومه، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذا نفر، فقال: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خير لك من قتلي، فاستحياه وأوثقه. وكان أبرهة رجلا حليمًا.

ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خَثْعَم، خرج نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلا فقال نفيل: أيها الملك إني دليل بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه، وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعتِّب في رجال من ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيدك، ليس لك عندنا خلاف، وإنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه أبا رِغَال، مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمُغَمَّس مات أبو رِغَال وهو الذي يرجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلا من الحبشة، يقال له: الأسود بن مسعود، على مقدمة خيله، وأمره بالغارة على نَعَمِ الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير.

الفصل الثاني: موقف عبد المطلب (جد النبي صلى الله عليه و سلم) من أبرهة

ثم إن أبرهة بعث حباطة الحِمْيَري إلى أهل مكة، وقال: سلْ عن شريفها ثم أبلِغْه ما أرسِلُكَ به إليه، أخبره أني لم آتِ لقتالٍ، إنما جئت لأهدم هذا البيت. فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتالٍ إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم.

فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إلا أن نخلي بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة.

قال: فانطلِقْ معي إلى الملك، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم المعسكر، وكان ذو نفر صديقًا لعبد المطلب فأتاه فقال: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشيا، ولكن سأبعث إلى أنيس، سائسِ الفيل، فإنه لي صديق فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال له: إن هذا سيد قريش صاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي، أحِبّ، ما وصل إليه من الخير، فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، يستأذن إليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له، وكان عبد المطلب رجلا جسيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه ثم دعاه فأجلسه معه، ثم قال لترجمانه قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي إلى الملك أن يردَّ علي مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، وقد زهدت فيك، قال عبد المطلب: لم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها؟ قال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل وإن لهذا البيت ربًا سيمنعه، قال ما كان ليمنعه مني، قال فأنت وذاك، فأمر بإبله فرُدَّت عليه.

فلما رُدّتِ الإبل إلى عبد المطلب خرج فأخبر قريشًا الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رءوس الجبال، تخوفًا عليهم من معرة الجيش، ففعلوا، وأتى عبد المطلب الكعبة، وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يـا رب لا أرجـو لَهُـم سـواكَا

يـا رب فـامْنَع منهـم حِمَاكَـا

إن عـدوَّ البيـت مـن عَادَاكَـا

امْنَعْهُـم أن يُخْـرِبُوا قُرَاكـا

وقال أيضا:

لا هُـمَّ إن العَـبْد يمـنـع

رَحْلَـــه فـــامْنَع حِـــلاَلَكْ

لا يَغْلِبَـــنَّ صليبُهُـــم

وَمِحَـالُهم غَـدْوًا مِحَـالَكْ

جـــروُّا جُـمُوع بِلادِهـم

والفيـل كـي يَسْـبُوا عِيَـالَكْ

عمـــدوا حِمَـــاك بِكَيْـدِهِمْ

جَـهْلا ومـا رقَبُـوا جَـلاَلَك

إن كـنت تـاركـهم وكعبَتَنَـا

فـــأمْرٌ مـــا بـــدَالَكْ

فلـم أسـمع بـأَرْجَسَ مـن رجـالٍ

أرادوا الغـزو ينتهكـوا حَـرَامَك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه، وأصبح أبرهة بالمغَمَّس قد تهيأ للدخول وعبَّأ جيشه وهيأ فيله، وكان فيلا لم ير مثله في العظم والقوة ويقال كان معه اثنا عشر فيلا.

الفصل الثالث: انتقام الله من أصحاب الفيل (أبرهة و جنده)

فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل فبعثوه فأبى، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه فنـزعوه ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم.

وخرج نفيل يشتد حتى صعد في الجبل ، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحدًا إلا هلك، وليس كل القوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاءوا منه، يتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، فصرخ القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل مهلك.

وبعث الله على أبرهة داء في جسده فجعل يتساقط أنامله كلما سقطت أنملةٌ اتبعتها مِدَّةٌ من قيح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

قال الواقدي: وأما محمود، فيل النجاشي، فربض ولم يسر على الحرم فنجا، والفيل الآخر شجع فحصب.

والأكثرون على أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(السورة: الفيل / الآية: 2)

{ألم يجعل كيدهم في تضليل}

تفسير

"كيدهم" يعني مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة. وقوله: "في تضليل" عما أرادوا، وأضلَّ كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة، وإلى ما أرادوه بكيدهم. قال مقاتل: في خسارة، وقيل: في بطلان.

(السورة: الفيل / الآية: 3)

{وأرسل عليهم طيرا أبابيل}

(طَيْرًا أَبَابِيلَ) كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضًا. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة. أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا.

قال الفراء:لا واحد لها من لفظها.وقيل: واحدها إبّالة . وقال الكسائي : إني كنت أسمع النحويين يقولون: واحدها أبول، مثل عجول وعجاجيل .

وقيل: واحدها من لفظها إبيل.

قال ابن عباس: كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب .

وقال عكرمة: لها رءوس كرءوس السباع. قال الربيع: لها أنياب كأنياب السباع.

وقال سعيد بن جبير: خضر لها مناقير صفر. وقال قتادة: طير سود جاءت من قبل البحر فوجًا فوجًا مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا تصيب شيئا إلا هشمته.

(السورة: الفيل / الآية: 4)

{ترميهم بحجارة من سجيل}

(حِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ): حجارة محماة شديدة صلبة من طين متحجر، قال ابن عباس وابن مسعود: صاحت الطير ورمتهم بالحجارة، فبعث الله ريحًا فضربت الحجارة فزادتها شدَّة فما وقع منها حجر على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره.

(السورة: الفيل / الآية: 5)

{فجعلهم كعصف مأكول}

(كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) كزرع وتبن أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه. شُبِّه تقطُّع، أوصالهم بتفُّرقِ أجزاء الرَّوْث. قال مجاهد: "العصف" ورق الحنطة. وقال قتادة: هو التبن. وقال عكرمة: كالحب إذا أكل فصار أجوف. وقال ابنَ عباس: هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له.

(السورة: قريش / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش}

عدَّ بعضهم سورة الفيل وهذه السورة واحدة؛ منهم أبَيّ بن كعب لا فصل بينهما في مصحفه، وقالوا: اللام في "لإيلاف" تتعلق بالسورة التي قبلها، وذلك أن الله تعالى ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما صنع بالحبشة، وقال: (لإيلافِ قُرَيْشٍ).

و المعنى: جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي يريد إهلاك أصحاب الفيل لتبقى قريش وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف التي يخرجون فيها إلى الشام و اليمن.

وقال مجاهد: ألفوا ذلك فلا يشق عليهم في الشتاء والصيف .

والعامة على أنهما سورتان، واختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله "لإيلاف"، قال الكسائي والأخفش: هي لام التعجب، يقول: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت، ثم أمرهم بعبادته كما تقول في الكلام لزيد وإكرامنا إياه على وجه التعجب: اعجبوا لذلك: والعرب إذا جاءت بهذه اللام اكتفوا بها دليلا على التعجب من إظهار الفعل منه.

وقال الزجاج: هي مردودة إلى ما بعدها تقديره: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف.

وقال ابن عيينة: لنعمتي على قريش.

السيرة و الغزوات

قريش هم ولد النضر بن كنانة، وكل من ولده النضر فهو قرشي، ومن لم يلده النضر فليس بقرشي.

عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" .

وسموا قريشًا من القرش، والتقُّرش وهو التكسب والجمع، يقال: فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب، وهم كانوا تجارًا حراصًا على جمع المال والإفضال.

وقال أبو ريحانة: سأل معاوية عبد الله بن عباس: لِمَ سُميت قريش قريشًا؟ قال: لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، وهي تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، فأنشده شعر الجمحي:

وقُـرَيْش مـي التـي تَسْـكُنُ البحـر ...بـهـا سُـمِّيَتْ قُـرَيْشٌ قُرَيْشَـا

سـلَّطَتْ بـالعُلُوّ فـي لجـة البحـر...عـلـى سـائر البُحـور جُيُوشَـا

تـأكل الغـثَّ والسـمين ولا تـترك...فيـه لـذي الجَنـاحَيْن رِيْشَـا

هكـذا فـي الكتـاب حـي قـريش...يـأكلونَ البـلاد أكـلا كميشا

ولهـم فـي آخـر الزمـان نبـيٌ...يُكْـثِرُ القَتْـلَ فيهـم والخُمُوشَـا

(السورة: قريش / الآية: 2)

{إيلافهم رحلة الشتاء والصيف}

كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة، إحداهما في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ والأخرى في الصيف إلى الشام.

وكان الحرم واديًا جدبًا لا زرع فيه ولا ضرع، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم، وكان لا يتعرض لهم أحد بسوء، كانوا يقولون: قريش سكان حرم الله وولاة بيته فلولا الرحلتان لم يكن لهم بمكة مقام، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف، وشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام فأخصبت تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن، فحملوا الطعام إلى مكة، أهل الساحل من البحر على السفن وأهل البر على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة، وأهل البر بالمحصب، وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة فألقوا بالأبطح، فامتاروا من قريب وكفاهم الله مؤنة الرحلتين، وأمرهم بعبادة رب البيت فقال: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) أي الكعبة. (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ) أي من بعد جوع بحمل الميرة إلى مكة (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) بالحرم وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم في

رحلتهم.

وقال عطاء عن ابن عباس: إنهم كانوا في ضرٍّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني حتى كان فقيرهم كغنيهم.

(السورة: الكوثر / الآية: 2)

{فصل لربك وانحر}

تفسير

قوله عز وجل: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) قال محمد بن كعب: إن أناسا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلي وينحر لله عز وجل .

وقال عكرمة وعطاء وقتادة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وانحر نسكك.

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: فصل الصلوات المفروضة بجَمْعٍ وانحر البُدْن بمِنىً.

و في الآية دليل على أن الأضحية تكون بعد صلاة العيد لا قبلها وقد ورد ذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

ففي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "من ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه، وأصاب سنة المسلمين".

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحى النبي صلي الله عليه وسلم بكبشين أملحين ذبحهما بيده، وسمي وكبر ووضع رجله على صفاحهما.

وفي الصحيحين أيضاً عن جندب سفيان البجلي قال: شهدت الأضحى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قضي صلاته بالناس نظر إلى غنم قد ذبحت فقال: "من ذبح قبل الصلاة فليذبح شاة مكانها، ومن لم يكن ذبح فليذبح على اسم الله" واللفظ لمسلم.

وعن عطاء بن يسار قال: سألت أبا أيوب الأنصاري: كيف كانت الضحايا فيكم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟فقال : كان الرجل يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته.

(السورة: النصر / الآية: 1)

{بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح}

السيرة و الغزوات

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) أراد فتح مكة. ونذكر تفاصيل فتح مكة عبر عدة فصول:

الفصل الأول: قريش تنقض عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم

وكانت قصته -على ما ذكر محمد بن إسحاق وأصحاب الأخبار -أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح قريشًا عام الحديبية، واصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأنه من أحب أن يدخل في عَقْد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عَقْد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خُزَاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بينهما شرٌّ قديم.

ثم إن بني بكر عَدَتْ على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة، يقال له "الوَتِير"، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حتى بيَّت خزاعة، وليس كلٌ بكرٍ تابعه، فأصابوا منهم رجلا وتحاربوا واقتتلوا، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيًا بالليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكرين: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، مع عبيدهم فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنا دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: إنه لا إله لي اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم فيه.

فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد بما استحلوا من خزاعة -وكانوا في عقده-خرج عمرو بن سالم الخزاعيّ، حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظَهْراني الناس، فقال:

لا هـم إنـي ناشِـدٌ محـمدًا...حِـلْفَ أبينـا وأبيـهِ الأتْلَـدا

إن قريشـا أخـلَفُوكَ المَوْعِـدَا...ونقضـوا ميثـاقَك المؤكَّـدا

...

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد نُصِرْت يا عمرو بن سالم"، ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنان من السماء، فقال: "إن هذه السحابة لتستهلّ، بِنَصْرِ بني كعب"، وهم رهط عمرو بن سالم.

ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقَاء في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء لِيَشُدَّ العَقْدَ ويزيد في المدة.

الفصل الثاني: موقف أبي سفيان

ومضى بديل بن ورقاء فلقي أبا سفيان بعُسْفَان، قد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليَشُدَّ العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا الذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بُدَيْلا قال: من أين أقبلت يا بُدَيْل؟ وظن أنه قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيت محمدا؟ قال: لا فلما راح بُدَيْل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف ناقته بها النوى، فعمد إلى مَبْرك ناقته فأخذ من بعرها فَفَتَّه فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بُدَيْلٌ محمدًا.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يا بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم أرغبت به عني؟ قالت: بلى هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: والله لقد أصابك يا بُنَيَّة بعدي شيء، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئًا غير أنه قال:

نقض أهل مكة العهد.

ثم ذهب إلى أبي بكر فكلَّمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلَّمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ! فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعنده فاطمة بنت رسول لله صلى الله عليه وسلم وعندها الحسن بن علي رضي الله عنهما، غلامٌ يَدِبّ، بين يديها، فقال: يا علي إنك أمسّ، القوم بي رحمًا وأقربُهم مني قرابةً، وقد جئت في حاجةٍ فلا أرجعن كما جئت، خائبًا، اشفع لنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيدِّ العربَ إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنَيّ أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد، فقال: يا أبا الحسن -إني أرى الأمور قد اشتدَّت عليَّ فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأَجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال أوترى ذلك مغنيًا عني شيئا؟ قال: لا والله ، ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته والله ما رد عليَّ شيئًا ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيرًا، فجئت ابن الخطاب فوجدته أَعْدَى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعتهُ، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئًا أم لا؟ قالوا: وماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا قالوا: والله إن زاد عليٌّ على أن لعب بك، فلا يغني عنَّا ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

الفصل الثالث: النبي صلى الله عليه و سلم يتجهز لفتح مكة

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجَهَازِ، وأمر أهله أن يجهِّزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أي بنية أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهَّزْ، قال: فأين ترينه يريدُ؟ قالت: ما أدري. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: اللهم خُذِ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادها، فتجهز الناس.

وكتب حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ كتابًا إلى قريش -وفيه قصة ذكرناها في سورة الممتحنة - .

ثم استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا رُهْم كلثومَ بن حُصَيْن بن خلف الغفاري، وخرج عامدًا إلى مكة لعشر مَضَيْنَ من رمضان سنة ثمان، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد -ماء بين عُسْفَان وأَمَجّ -أفطر.

ثم مضى حتى نزل بمرِّ الظَّهْران في عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، فلما نزل بمر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل، فخرج في تلك الليلة: أبو سُفْيَان بن حَرْب، وحكيم بن حِزَام وبُدَيْل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار هل يجدون خبرًا؟ وقد قال العباس بن عبد المطلب ليلتئذٍ: وَاصباحَ قريش، والله لئن بغتها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلادها فدخل مكة عنوة إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

الفصل الرابع: موقف العباس عم النبي صلى الله عليه و سلم و إسلام أبي سفيان

فخرج العباس على بغلة رسول الله وقال: أخرج إلى الأراك لعلي أرى حطَّابًا أو صاحب لبن أو داخلا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتونه فيستأمنونه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال العباس فخرجت وإني -والله -لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن

ورقاء، وقد خرجوا يتحسسون الخبر، فسمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قطّ نيرانًا، وقال بديل: هذه والله نيران خزاعة حَمَشَتْها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة ألأمُ من ذلك وأذلُ فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي فقال: يا أبا الفضل، فقلت: نعم، فقال: مَالَك فداك أبي وأمي؟ قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا، والله، رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء بما لا قِبَل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين، قال: وما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليَضْرِبَنَّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنهُ فردفني، ورجع صاحباه فخرجت أركض به بغلةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلما مررت بنار من نيران المسلمين فنظروا إلي قالوا: هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عَجُزِ الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتدَّ نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فركضتُ البغلة وسبقته بما تسبق الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيء، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني فلأضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أَجَرْتهُ، ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه الليلة أحدٌ دوني، فلما أكثر فيه عمر رضي الله عنه قلت: مهلا يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدِّي بن كعب ما قلت هذا. قال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب به يا عباس إلى رَحْلِك، فإذا أصبحتَ فَأْتِنِي به"، قال: فذهبت إلى رَحْلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: "ويحك يا أبا سفيان ألم يَأْنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟" قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره فقد أغنى عني شيئا بعدُ، قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي وما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، قال العباس: قلت له: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قبل أن يضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحقِّ وأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمِنٌ، ومن دخل المسجد فهو آمِنٌ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عباسُ احبِسْه، بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها، قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: ومرَّت به القبائل على راياتها، كلما مرتْ قبيلة قال: من هؤلاء يا عباس؟ قال: أقول: سليم، قال يقول: ما لي ولِسُلَيْم، ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مُزَيْنَة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته يقول: ما لي ولبني فلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخضراء، كتيبة رسول الله، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، فقال: والله ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، فقال: ويحك! إنها النبوة، قال: نعم إذًا.

فقلت: الحق الآن بقومك فحذرهم، فخرج سريعا حتى أتى مكة فصرخ في المسجد بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبلَ لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

الفصل الخامس: دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا

وجاء حَكيمُ بن حزام وبُدَيْلُ بن ورقاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران فأسلما وبايعاه، فلما بايعاه بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه إلى قريش يَدْعُوَانهم إلى الإسلام.

ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند النبي صلى الله عليه وسلم عامدين إلى مكة بعث في إثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمَّره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحُجُون، وقال: لا تبرح حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيَك، ومن ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضربت هناك قبته، وأمر خالد بن الوليد فيمن أسلم من قضاعة وبني سليم أن يدخل من أسفل مكة وبها بنو بكر قد استنفرتهم قريش وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش، أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة، وإن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا أناسًا بالخَنْدَمَة ليقاتلوا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد والزبير حين بعثهما: لا تقاتلا إلا من قاتلكم، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من

كدي، فقال سعد حين توجه داخلا اليوم يوم المَلْحَمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحرمةُ، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها، فلم يكن بأعلى مكة منْ قِبَل الزبير قتال، وأما خالد بن الوليد فقدم على قريش وبني بكر والأحابيش بأسفل مكة، فقاتلهم فهزمهم الله، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك.

وقتل من المشركين قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له: سلمة بن الميلاء، من خيل خالد بن الوليد، ورجلان يقال لهما: كُرْزُ بن جابر وخُنَيْس بن خالد، كانا في خيل خالد بن الوليد، فشذا عنه وسلكا طريقًا غير طريقه، فقتلا جميعا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا أحدًا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفرٍ سماهم أمر بقتلهم، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة. منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركًا، ففر إلى عثمان، وكان أخاه من الرضاعة، فغيَّبه حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن أهل مكة، فاستأمن له. وكان منهم عكرمة بن أبي جهل، فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أُمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنَتْ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه، فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم.

الفصل السادس: اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء!

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقف قائمًا على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مَأْثُرَةٍ أو دم أو مالٍ في الجاهلية يدعى فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سَدَانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوَة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم وآدم خُلق من تراب، ثم تلا "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى..." [الحجرات -13]، يا أهل مكة، ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء.

ثم اجتمع الناس للبيعة؛ فجلس لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتح مكة لعشر ليال بَقِينَ من رمضان سنة ثمان، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة.

ثم خرج إلى هوازن وثقيف، قد نزلوا حنينا.

(السورة: النصر / الآية: 2)

{ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا}

تفسير

ورأيت الناس يدخلون في الإسلام زُمرًا وأرسالا: القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال.

قال الحسن: لما فتح الله عز وجل مكة على رسوله قالت العرب بعضها لبعض: إذا ظفر محمد بأهل الحرم -وقد كان الله أجارهم من

أصحاب الفيل -فليس لكم به يدان، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجًا بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا، واثنين اثنين.

وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبًا وأرق أفئدة الإيمان والحكمة يمانية".

(السورة: النصر / الآية: 3)

{فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}

تأملات

سورة النصر هي أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أُعلمه به

فالمعنى: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) فإنك حينئذ لاحقٌ به.

عن ابن عباس قال: كان عمر يُدْخِلني مع أشياخ بدر قال بعضهم: لِمَ تُدْخِل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممَّن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا لِيُرِيَهم مني، فقال: ما تقولون في قوله: "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ..."حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري،ولم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أُعلمه به، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ: فتح مكة، فذلك علامة أجلك "فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا"، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم .

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي" يتأوَّل القرآن.

عن عائشة؛ قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ من قول: "سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه" ،قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: "سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه؟" فقال: أَخْبَرَنِي ربي أني سأرى علامةً في أمتي، فإذا رأيتَها أَكْثِرْ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. فالفتح: فتح مكة، "ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا" .

قال ابن عباس: لما نـزلت هذه السورة علم النبي صلى الله عليه وسلم أنه نُعيتْ إليه نفسه .

قال الحسن: أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة، ليختم له بالزيادة في العمل الصالح .

قال قتادة ومقاتل: عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نـزول هذه السورة سنتين.

خاتمة

تم بحمد الله إتمام هذا الكتاب، وهو الكتاب الأول من مجموعة "كتاب مصحفي" تصدر عن شبكة مصحفي، وهي أول شبكة اجتماعية حول كتاب الله تعالى، على الموقع: www.almoshaf.net، تناولنا فيه الآيات التي تذكر أو تشير إلى مكة و الحج عبر تدوينات قصيرة في شتى الجوانب التي تشرح هذه الآيات من تفسير و أسباب نزول و فقه و لغة و إعجاز علمي و أخلاق و تهذيب و حديث و سنة و تاملات و خواطر و غيرها، وهي تبدأ حسب ترتيب المصحف من الآية 124 من سورة البقرة و تنتهي بالآية 3 من سورة النصر. نسأل الله تعالى الإخلاص و القبول و الأجر و الثواب والنفع و الفائدة لكل من يقرأه أو ينشره.